18.4.2012
ketab.me
Twitter: @MahmoodTayeb

حكايتي مع صدام

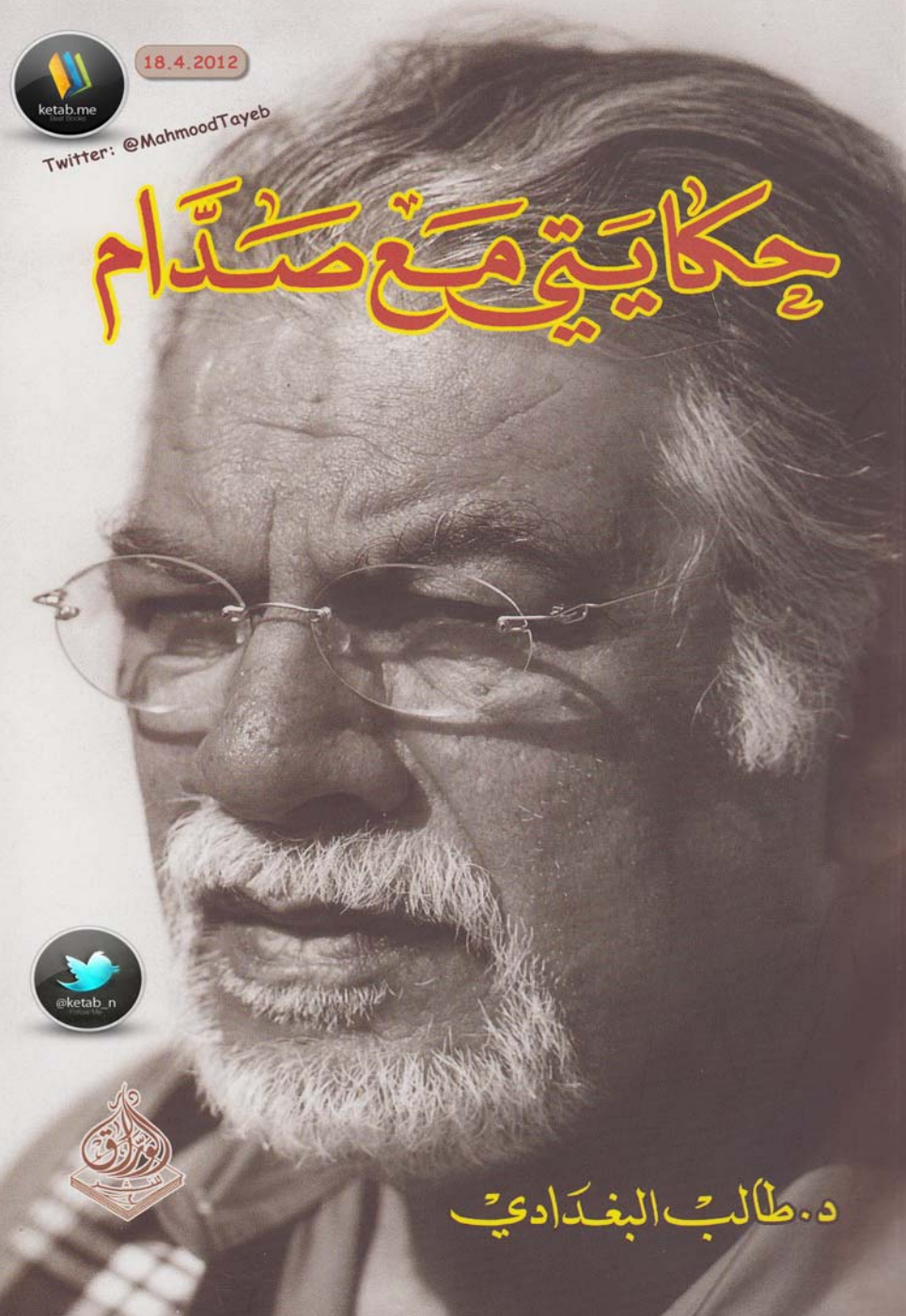

@ketab_n

د. طالب البغدادي

حكايتي مع صدام

د. طالب البغدادي

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادّته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

* اسم الكتاب: حكايتي مع صدام.
* المؤلف: د. طالب البغدادي
* الطبعة الأولى لشركة دار الوراق للنشر المحدودة، **2010** .
* جميع الحقوق محفوظة لشركة دار الوراق للنشر المحدودة.
* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.

WWW.alwarrakbooks.com

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

بيت الوراق
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ - ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

Twitter: @MahmoodTayeb

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر 7
لماذا هذا الكتاب 11

الباب الأول
حكايتي مع صدام

الفصل الأول: الاستدعاء 17
الفصل الثاني: اللقاء بصدّام حسين 21
الفصل الثالث: الاعتقال والتحقيق 29
الفصل الرابع: بانتظار المحاكمة 39
الفصل الخامس: المحاكمة 47
الفصل السادس: سجن «أبو غريب» 57
الفصل السابع: الخروج من السجن 65
بين الاعتقالين: إجراءات قمعية أخرى 71

Twitter: @MahmoodTayeb

الباب الثاني
في سجون المخابرات

الفصل الأول: بين سجن القصر الأبيض وسجن الحاكمية 77
الفصل الثاني: في سجن المخابرات الرهيب «أبو غريب» .معسكر غسل الدماغ 95
الدكتور طالب البغدادي 103
أبحاث ومقالات منشورة 104

Twitter: @MahmoodTayeb

تقديم

بقلم السيد ماجد شبّر

لقد أبدع أستاذنا د. طالب البغدادي حين تحدث عن حكايته مع صدام، فقد كان دقيقا وواضحا في وصف الأحداث التي مر بها وهو ينقل الصورة التي عاشها. كنت طالبا في تلك السنة التي اعتقل بها استأذنا د. طالب البغدادي، ومن المفيد ان أسلط قليلا من الضوء على مجريات تلك السنة وعن كلية (الإدارة والاقتصاد) في جامعة بغداد.

لقد أخذتني هذه الصفحات إلى سنيين بعيدة فأنعشت الذاكرة بما حدث في تلك السنة، ان جو الخوف والفزع الذي كان مسيطرا على أجواء الجامعة لأي حركة أو كلمة تمس السياسية من بعيد أو من قريب، بل ان الطلبة في كثيرا من الأحيان لا يعرفون ما هو الممنوع من القول ! فكل كلمة تقال في قاعة الدراسة كان يحسب لها ألف حساب، ويمكن ان تؤول بطريقة تنعكس على مصير الطالب .

وكمثال لذلك اسرد حدثا صغيرا وقع لي في الجامعة في أيام تلك السنة.، لتكتمل الصورة من زاوية أخرى التي رسمها أستاذي د البغدادي، ولو وقع المحضور لكان من الممكن ان أكون مع د طالب البغدادي في زنزانات البعث بتهمة أخرى، لولا موقف شريف لصديق عزيز.

Twitter: @MahmoodTayeb

كان لدينا درس اسمه (المجتمع العربي) والذي تغير لاحقا بعد سنوات إلى (الثقافة القومية) !! وكان يلقي علينا المحاضرة أستاذ متخصص في علم الاجتماع، وفي تلك المحاضرات كان الطلاب ينجرون إلى نقاشات ومناقشات، وقد دخلت في إحدى تلك المناقشات وكانت تدور حول الفرد والمجتمع - فمن جملة ما قلته ان الفرد العراقي يحمل في مكنونه حالة من العداء ضد الدولة، ومن جملة هذا العداء الشائع في العراق، ان يقوم أطفال أو مراهقين بتكسير الأضواء الكهربائية في الشوارع العامة ! ممن كان يطلق عليهم "عصافير الحكومة "، أو يقومون بتمزيق مقاعد السيارات العمومية او المقاعد في السينمات، وهذه التصرفات تنم عن حالة عدائية يحملها بعض الأفراد ضد الدولة حيث ينظر هؤلاء الأفراد إلى الممتلكات العامة على أنها ملك للدولة وليس للشعب. ان الدول التي حكمت العراق لقرون طويلة، وخصوصا في العهد العثماني، لا يعرف عنها الإنسان العراقي إلا الضرائب والتجنيد و السخرة، لذا كانت تصرفات هؤلاء الأفراد تنطلق من ذلك التراكم الكبير والثقيل من الظلم والاضطهاد والذي يتجسد في هذه الأفعال .

عندما أنهيت كلامي هذا، قام احد الطلبة (مسئول الشعبة أو الصف) بالرد على قولي بان الحزب والثورة قد غيرتا كل شيء وان الدولة تدار من قبل الشعب وقال كلاما طويلا، فقمت بالرد عليه قائلا : ان تراكم مئات السنين لا يمكن ان يزول بثمان سنوات أو عشرة بل نحتاج إلى سنوات طويلة، وانتهى النقاش.

وبعد أيام من ذلك النقاش اتصل بي تلفونيا صديق عزيز، وكان مسئول الحزب لتلك المرحلة وقال إنه يود رؤيتي لأمر خاص

Twitter: @MahmoodTayeb

وعاجل، فقلت : حاضر وان شئت الآن، والتقينا، فسالني ماذا فعلت أو قلت قبل أيام، فقلت لا اذكر إني قلت شيئا، قال بل قد تكلمت في محاضرة المجتمع العربي . . .وقلت كلاما خطيرا، ولم أكن اعلم ان إحدى زميلاتي رفعت تقريرا طويلا إلى مسئول الحزب واني كنت متهما : " بأني اتهم الحزب والثورة بالعجز عن بناء المجتمع العراقي، واني أحرض على معادة الحزب والثورة،واني إنسان برجوازي حاقد" !!! .

ومن حسن حظي ان صديقي هذا كان يسكن في نفس منطقتنا وكنا نلتقي ونخرج كثيرا، فحكيت له القصة كما هي، كما حدثت داخل المحاضرة، وقلت له كل ما في الأمر انه نقاش ليس به اي مس بالدولة أو الحزب، ويمكن ان تسال أكثر من طرف.

فقال ان التقرير المرفوع ضدك خطير، ومن حسن حظك ان التقرير رفع إليّ، ولو رفع إلى شخص آخر لتم تحويل هذا التقرير إلى مديرية الأمن العامة، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك، وقد قام بتمزيق التقرير وانتهى الأمر.

الكلية بعد اعتقال د. طالب و بعض الطلبة.

لقد خيم الوجوم والخوف على الطلبة وسرت الإشاعات بيننا، فقد كانت كليتنا من الكليات الكبيرة والتي يتجاوز عدد طلبتها 2000 طالب، لذا كانت القوى الأمنية متواجدة فيها على الدوام ولكن قوى أمنية إضافية انتشرت بشكل مكثف و كبير، وكانت إحدى مراكز تواجد تلك القوى تركز في كشك لبيع الصحف (الثورة والجمهورية) الرسميتين، وبعض المجلات اللبنانية التي تصدرها المخابرات العراقية ببيروت .

Twitter: @MahmoodTayeb

الكل لا يعرف ماذا حدث للدكتور البغدادي وماذا حدث للطلبة الذين ناقشوا الشعارات، ولكن إشاعات كانت تملأ جو الكلية، واستمر الوضع متأزما حتى صدرت مراسيم فصل بعض الطلبة وبعدها سمعنا ان د. طالب سوف يعدم آو صدر بحقه حكم الإعدام .

وها نحن نذكر تلك الأيام السوداء التي جلبت الكوارث على العراق، والمستمرة تفاعلاتها إلى هذه الساعة. يتردد في بعض الجرائد والكتب قول ان العراق كان ممسوكا مباشرة بيد صدام وعندما ذهب تحلل العراق، ان هذا القول يدل على تفاهة قائليه وسذاجتهم، فهل ان العراق خلقه صدام والبعث؟ وقبل هذا لم يكن من عراق!!!.

ان البعث وصدام استلما دولة ذات مؤسسات تعليمة وثقافية وإدارية ممتازة و جيشا محترما وصناعة تحبو وزراعة جيدة ونظاما صحيا سليما وصناعة نفطية ممتازة وفق هذا كله كان هناك شعب متماسك لم تنخره ثقافة التقارير الحزبية والأمنية التي مسخت الإنسان العراقي.

وماذا ترك البعث وصدام غير كوارث في كل مفاصل الحياة منها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمة.

من المفيد جدا ان يكتب العراقي أحداثا عاشها ولو جزاءا بسيطا منها، او من حياته التي عايشها بتجاربه، وهذا ما جسده الدكتور طالب البغدادي بكتابه هذا، أن كتابة هذا هو مساهمة يسيرة من كتابة مرحلة قاسية من تاريخنا المعاصر .

لقد كان التاريخ يكتب قديما من قبل أشخاص يتولون تدوين الأحداث من خلال السمع أو النقل، بينما نحن في العصر الحديث يجب ان نكتب التاريخ من خلال سرد الإحداث التي عشناها حيث تشكل هذه الأحداث صورة من صورة التاريخ، تاريخ مرحلة مليئة بالفزع والخوف.

Twitter: @MahmoodTayeb

لماذا هذا الكتاب

ليست هذه الحكاية قضية شخصية كما يبدو للقارىء من أول نظرة على عنوان الكتاب لكنها حكاية تعكس قضية عامة، اختارني الطاغية أو ربما القدر لأن أكون صاحب هذه الحكاية أو الضحية التي بواسطتها نفذ النظام ما خطّط له من هجوم كاسح على الجامعة وعلى المؤسسات الأكاديمية بعد أن كانت تتمتع بقدر معين من الاستقلالية أو الموضوعية، وسرعان ما انتشر خبر هذه الحكاية بين مختلف أوساط الرأي العام العراقي لتصبح حينئذ قضية الشارع أو المجتمع العراقي الرئيسية يتحدث بها القاصي والداني، وربما كان موقفي الثابت أمام الطاغية وموقف الطالبات والطلاب الجريء جداً والمساند لموقف أستاذهم وتضحيتهم الغالية بواقعهم وبمستقبلهم السبب الرئيس في انتشار هذه القضية التي أصبحت تُعرف بقضية (من لا ينتج لا يأكل).

ولا يغيب عن البال أن النظام في نهاية عام 1976 حيث دارت فصول هذه الحكاية كان لا يزال متحالفاً مع الحزب الشيوعي الذي يُمَثَّل بأربعة وزراء في الحكومة وبعدد ضخم من الكوادر والمؤسسات، وأن الاتفاق الذي تمّ بين النظام والشيوعيين يقضي بأن

Twitter: @MahmoodTayeb

يمتنع الحزب الشيوعي عن القيام بأي نشاط أو تنظيم داخل القوات المسلحة فقط، ما يعني أن الجامعات والمؤسسات التعليمية والنقابات المتعلقة بذلك مفتوحة أمام نشاطهم كما هي مفتوحة أمام حزب النظام الحاكم (حزب البعث العربي الاشتراكي)، فأراد النظام إذاً أن يلوي ذراع الحزب الشيوعي وأن يجد المسوّغات لتبعيث التعليم الجامعي وتطهيره من أي عناصر أخرى مهما بلغ مستواها من علمية عالية أو خبرة تدريسية، كما فعل من قبل مع مؤسسات الجيش والشرطة إذ أصبحت مناطق مقفلة له.

وقد تناول عدد من الكتّاب والباحثين في أوروبا من المهتمين بالقضية العراقية وبقضايا الشرق الأوسط عموماً ذلك الموضوع بالتحليل والتفصيل، واستشهدوا بقضية (من لا يُنتج لا يأكل) باعتبارها نقطة الانطلاق نحو تدمير المؤسسات الأكاديمية وإلحاقها بالمؤسسات الفاشية للنظام، وأهم من كتب عنها الأستاذة الإنجليزية (مسز بنروز) عميدة كلية الاقتصاد في جامعة لندن، التي سبق لها أن أسَّست مع زوجها البروفيسور بنروز قسم الاقتصاد في كلية الآداب العراقية في أعوام الخمسينيات من القرن العشرين.

لقد أثارت القضية في حينها قطاعات كبيرة من الأكاديميين والمثقفين العراقيين والأجانب سواء داخل العراق أو خارجه، وخصوصاً في كل من فرنسا وبريطانيا حيث قدم عدد كبير من أساتذة الجامعات ومن المثقفين عرائض احتجاج، وقاموا بنشاطات مكثفة للضغط على الحكومة العراقية لإلغاء الحكم الصادر بحقي وإطلاق سراحي من سجن «أبو غريب».

Twitter: @MahmoodTayeb

وتبنّى عدد من مؤسسات حقوق الإنسان في العالم هذه القضية، وقام بتقديم التقارير حولها وممارسة بعض الضغوط باعتبارها قضية مخالفة لحقوق الإنسان. وكانت منظمة العفو الدولية في مقدمة تلك المؤسسات التي لم تألُ جهداً في الانضمام إلى صفوف المدافعين عني والمطالبين بإطلاق سراحي.

لقد كانت القضية نموذجاً حياً للقمع الفاشي بما يتعلق بحرية الفكر والاعتقاد، ومثالاً سيئاً جداً للتدخل البوليسي في شؤون الجامعات وانتهاك حرمتها وقدسيتها، فقد كان اعتقالي من على منصة التدريس يمثّل أول حالة من نوعها في تاريخ العراق المعاصر ولأسباب لا تخرج على الإطلاق عن إطار التدريس وممارسة العمل الأكاديمي، وكان قرار فصلي من الخدمة المتخذ من مجلس قيادة الثورة الذي أذيع في راديو النظام الحاكم وتلفزيونه ونشر في جريدة الوقائع العراقية أول قرار فصل سياسي لأستاذ جامعي منذ تسلم حزب البعث للسلطة في تموز 1968، وقد انتهز النظام هذه الفرصة ليحيل على التقاعد ولأول مرة مجموعة من خيرة أساتذة العراق، بينهم من له سمعة عالمية كبيرة ومن يصنّف ضمن مشاهير العلماء في العالم أمثال إبراهيم كبة والدكتور محمد سلمان حسن، وتتابعت بعد ذلك الحملة المنظمة لتطهير الجامعات من الأساتذة الجيدين وملئها بعناصر حزبية غير جديرة لا قدرة لها سوى تبعيث المناهج وفرض الانتماء الحزبي على مجموع الطلبة، وبالتالي تحقيق الهدف التربوي العام للحزب وهو خلق (الطالب ـ الأداة) بدلاً من (الطالب ـ الذهنية).

لقد ألحّ عليّ عدد من الأصدقاء، خصوصاً أولئك الذين عاشوا

Twitter: @MahmoodTayeb

القضية وعانوا نتائجها وتداعياتها أن أوثّق القضية بعد أن كنت قد دوّنتها واحتفظت بها ضمن كتاباتي التي لم ترَ النور وبقيت حبيسة رفوف مكتبتي الخاصة، ووجدت أن خير توثيق لها هو طبعها ونشرها بكتيب قد يساهم في تدوين صفحة من صفحات تاريخ الفاشية في العراق، ولكي لا تضيع الحقائق خصوصاً بالنسبة إلى الأجيال الجديدة بين مجريات التراشق السياسي والانحدار الفكري اللذين يسودان الساحة الثقافية بشكل عام.

Twitter: @MahmoodTayeb

الباب الأول

حكايتي مع صدام[1]

(1) تتكون هذه الحكاية من سبعة فصول شهودها لا يزالون على قيد الحياة.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الأول
الاستدعاء

الساعة 10:8 دقائق من صباح 6/ 11/ 1976، كنت ألقي المحاضرة الصفية في النظرية النقدية على طلبة الصف الرابع من قسم الاقتصاد في كلية الإدارة والاقتصاد في جامعة بغداد حيث كنت أستاذاً متفرغاً فيها، وأثناء انهماكي في مسح اللوحة (السبورة) فُتح الباب وأطل منه الدكتور حميد جاسم الجميلي رئيس قسم الاقتصاد وطلب مني مكالمته خارج الصف، وحين التقيته كان وجهه مصفراً، وبكلمات مرتجفة وخائفة جداً أخبرني بأن السيد النائب صدام حسين يستدعيني فوراً في مقرّه في مجلس قيادة الثورة، وطلب مني حينئذ مرافقته في سيارته الخاصة، فطلبت منه أن يسمح لي بأخذ سيارتي وقيادتها إلى البيت الذي لم يكن بعيداً عن الكلية ويقع في طريق توجهنا إلى مجلس قيادة الثورة.

وصلت إلى البيت وركنت السيارة في مدخله والتقيت زوجتي الدكتورة واثبة داود السعدي الأستاذة في كلية القانون والسياسة في جامعة بغداد التي لم تكن قد غادرت البيت بعد، أعطيتها جميع المفاتيح التي معي وسلمتها حقيبتي المكتبية وودّعتها بعد أن أخبرتها

Twitter: @MahmoodTayeb

بأنها ربما لنا ترني بعد الآن إذ إن صدام حسين يطلبني، وبكل رباطة جأش شدّت على يدي وأسرَّت إليَّ ببعض الكلمات التي كانت بالنسبة لي دافعاً على مواجهة أي صعاب قد أواجهها «لا أوصيك، كرامتك قبل كل شيء»، وطيلة الطريق الذي استغرق نحو نصف ساعة لم ينبس رئيس القسم ببنت شفة، ولم أسأله من جانبي عن أي شيء قد يوضّح هدف الاستقدام أو طلب المقابلة.

وصلنا إلى ساحة وقوف السيارات في مجلس قيادة الثورة فوجدت عدداً من باصات نقل الطلبة واقفة فيها فأثارت استغرابي، وعند دخولنا إلى مدخل المجلس وكان بصحبتنا رئيس الاتحاد الوطني لطلبة الكلية فوجئت بوجود طلبة بعض الصفوف الرابعة والثانية لقسم الاقتصاد حيث كنت أدرسهم مادتي النظرية النقدية في الصف الرابع وعلم الاقتصاد في الصف الثاني وهم يملؤون قاعة الاستقبال، أخذت مكاني إلى جانب رئيس قسم الاقتصاد وبعد فترة دخل صباح ميرزا المرافق الأقدم للنائب صدام حسين وبرفقته الدكتور عبد العزيز القطيفي أحد المحاضرين في الكلية وتربطني به صداقة خاصة وهو حينئذ رئيس مجلس التخطيط بعيد المدى، والدكتور صلاح الشّيخلي أحد المحاضرين معي في الجامعة المستنصرية في القسم المسائي وكان حينئذٍ المستشار الاقتصادي لنائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين، وبدأ الثلاثة يصافحون الموجودين، وحين وصلوا إليّ تجاهلوني ومدّوا أيديهم إلى الشخص الذي يجلس بعدي، فعرفت حينها أن ثمة شيئاً متخذاً ضدي، إذ إن عبد العزيز القطيفي كان قبل عدة أيام يحاول أن يقنعني بأن أكون عضواً متفرغاً في مجلس

Twitter: @MahmoodTayeb

التخطيط وفي مجلس المالية الأعلى، وكان يكنّ لي احتراماً وحباً ظاهرياً ليس له حدود.

وبعد هنيهة دخل القاعة الأستاذ هادي التميمي عميد الكلية، وسرعان ما أخذ مكانه إلى جانبي الأيمن ثم ضرب فخذي الأيمن قائلاً: «لا تخف، فقد كنت مجتمعاً في مجلس إدارة الجامعة لمناقشة قضيتك، واتفق المجلس بجميع أعضائه على أن يقف معك وبجانبك»، لم أكن أدري عن أي قضية يتحدث ولماذا الخوف فأجبته: «لِمَ الخوف، الموضوع بأكمله أن أعلى مسؤول في الدولة يستدعيني ربما لمناقشتي في بعض الموضوعات الاقتصادية»، فبهت من جوابي وهمّ بإبلاغي عن القضية لولا أن صباح ميرزا يصيح بصوت مسموع: «هيّا إلى قاعة الاجتماعات لمقابلة السيد النائب».

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الثاني
اللقاء بصدّام حسين

دخلنا قاعة الاجتماعات وكانت شبه بيضوية تتصدرها منصة صغيرة لإدارة الاجتماعات، وتحيطها كراسي بعدة صفوف، وتتوسطها قاعة لها بعض العمق مليئة بمكاتب صغيرة وكراسٍ.

وجّهونا أن نأخذ الجانب الأيمن من المنصة فكان الكرسي الأول لرئيس جامعة بغداد طه إبراهيم العبد الله والثاني لعميد الكلية هادي التميمي والثالث لرئيس قسم الاقتصاد الدكتور حميد جاسم الجميلي، وكنت الرابع في التسلسل مما يعني أنني كنت قريباً من المنصة، وتوزع الطلاب جميعاً على بقية المقاعد، أما في الوسط فقد جلس رئيس مجلس التخطيط وأعضاؤه والمستشار الاقتصادي للنائب الدكتور صلاح الشيخلي وعدد من المستشارين والخبراء الاقتصاديين.

كانت وجوه الجميع واجمة وكانت نظرات معظم الطلبة تتجه نحوي ربما لتدعمني ولتقف خلفي لتشدني في هذا الموقف الحرج... هكذا فهمتها وفهمت حينها أن كل الموجودين يعرفون لماذا نحن هنا إلا أنا صاحب القضية... ولم يطل تفقدي لبيئة تلك

Twitter: @MahmoodTayeb

اللحظات حتى دخل أحد العسكريين ليقف منتصباً على يمين المنصة ويصرخ بأعلى صوته «السيد النائب».

قام الجميع وقمت معهم فقد قررت في حينه أن أفعل كما يفعل الآخرون، فلم أكن أفهم أساليب الاجتماعات الرسمية (وخصوصاً البعثية) وكيف تُدار الجلسات، دخل صدام حسين ووقف على المنصة الصغيرة وكان مرتدياً بذلة زرقاء داكنة (نيلية) ومخططة بخط أحمر يكاد لا يظهر، وكان وجهه أزرق طاعناً يميل إلى السواد المطعون، وكانت عيناه مفتوحتين ومتقدتين وكأنهما تلقيان شرراً بل جمراً. نظر إلى القاعة ودار ببصره إلى كل ما أو من في القاعة ليستقر في النهاية أمامي ويفتح عينيه بغضب ثم يصرخ بوجهي: أنت الدكتور طالب؟ قلت له: نعم، فصرخ: «اجلس». فجلست وجلس هو بدوره وجميع الحاضرين، ثم التفت إلي وصرخ بوجهي وبنفس الأسلوب: «قُم». وبعد قيامي قال لي صارخاً: «اذكر اسمك الثلاثي ولقبك». وبعد أن أجبته سألني: «هل أنت سياسي؟». قلت له «كلا». فقال: «تكذب». وسألني ثانية: «شيوعي؟». فقلت له: «كلا». فقال: «تكذب». ثم سألني بصرخة أخرى: «ماركسي؟». وقبل أن أجيب عن السؤال كانت كلمات زوجتي ترن في أذني «كرامتك قبل كل شيء»، وبلحظات اتخذت الموقف الذي يصون كرامتي وقررت أن أختار الموت مع الكرامة لأكون أمام طلبتي نموذجاً يحتذون به، فأجبته: «إن الماركسية مفهوم واسع ويا ليتني كنت قادراً على استيعابه لأجيبك بنعم». فصرخ بي صرخة قاتلة: «اخرس واجلس».

أدار بوجهه نحو الحاضرين وبدأ يسرد كيف أن الشعب العراقي كان جائعاً وحافياً، وكيف أن التخلف من فقر وجهل ومرض كان

Twitter: @MahmoodTayeb

يفتك بكل أبناء الشعب، وكيف أنه جاء لينقذ هذا الشعب من ذلك الواقع ويوصله إلى مرحلة التقدم، وكيف أنه استطاع أن ينقل العراق من حالة التخلف إلى حالة التقدم، وكيف أن العراق لم يعد يصنّف مع الدول النامية أو المتخلفة بل أصبح في عداد الدول المتقدمة، وكيف أن العراق يحتل الآن منزلة دولة تؤهله لقيادة المنطقة، وكيف وكيف... ثم وصل في النهاية إلى عبارة اتجه بها نحوي ووقعت عليّ وقع الصاعقة حين قال: «وفي نهاية المطاف يأتي شخص مثل أستاذكم الفيلسوف طالب البغدادي ليقول لي قم لأجلس مكانك». حقيقة كانت هذه العبارة بمثابة حبل مشنقة وضعه في رقبتي إذ وضع الموضوع في خانة التآمر من أجل قلب الحكم.

ثم سأل الحاضرين: «أيها الطلبة ألم يكن بينكم ولا بعثي واحد ليرد على هذا الأستاذ الذي سمّم أفكاركم وفندّ شعارات الحزب التي صغتها بنفسي لبدء مرحلة جديدة في البناء. ألم يكن بينكم عراقي واحد يدافع عن شعاراتي وعن سياسة الحزب والثورة... هكذا سممّ أفكاركم وخدعكم؟!». ثم التفت إلى العميد هادي التميمي وقال له بحزم: «واحد من الشعارات يقول: إضاعة دقيقة من الوقت إضاعة فرصة من التقدم، وإن الاجتماع قد تأخر نصف ساعة عن موعده، من هو المسؤول عن ذلك؟». فرفع العميد يده اليمنى وهي ترتجف وأجابه بصوت متقطع خائف: «أنا سيدي» فقال له: «اكتب بذلك مديناً نفسك وأعطه إلى الرفيق صلاح». ثم التفت إلى الطلبة وقال لهم: «سأناقش أستاذكم في علم الاقتصاد، وسأريكم أي عالم هذا وأي فيلسوف هذا، وسأريكم أن الدكتوراه التي حصل عليها بعدة سنوات أستطيع الحصول عليها بساعات».

Twitter: @MahmoodTayeb

أدركت وأيقنت حينئذ أن الموضوع يتعلق بمحاضرة صفّية سبق أن ألقيتها في الصف الثّاني قبل أسبوعين كانت تتعلق بمادة الدخل القومي ودور النقود في انتقال مفهوم الناتج القومي إلى مفهوم الدخل القومي بواسطة توزيع مكافآت عناصر الإنتاج كل بحسب مساهمته في عملية إنتاج الناتج القومي... إلخ، وقد نوقشت بعد المحاضرة مقولة اقتصادية طرحها أحد الطلاب وهي (من لا ينتج لا يأكل)، واتفق الطلاب على أن هذه المقولة تتناقض مع موضوع المحاضرة، وقد تبيّن فيما بعد أنها شعار حزبي طرحه النائب بنفسه شعاراً للمرحلة الجديدة، وقد تبين للطلاب خطأ هذه المقولة التي حرّفت عن مقولة قديمة صحيحة اقتصادياً تقول: (من لا يعمل لا يأكل) منسوبة إلى لينين بعد تولي البولشفيك السلطة في روسيا، أدركت أن استفزازاته وشتائمه وإهاناته المقصودة لم تزدني إلّا إصراراً على مواجهة الموقف بشجاعة وجرأة، وشعرت كأن قوة خفية عظيمة تساعدني في الصمود أمام هذا المارد الجبار.

فبادرت بدوري وقلت له: «اسمح لي أن أبيِّن لك الموضوع». فصرخ بي: «اخرس لن تتكلم». فرددت عليه قائلاً: «لكنكم اتهمتني وتتهمني بتهم خطيرة ومن حقي الدفاع عن نفسي وإيضاح الحقيقة». فقال لي بحزم: «اخرس، سأوجّه لك أسئلة وأُريد منك الجواب عنها فوراً، وما عليك إلا أن تنصت للسؤال وتجيب عنه». طرح علي السؤال الأول وكأنه يمتحنني كما يمتحن الأستاذ طالبه في امتحان شفهي، كان سؤاله تافهاً لا يستحق الإجابة عنه، وقلت له: «لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال». بدت عليه علائم الارتياح وابتسم وهو ينظر إلى الطلبة باعتبار أنه أحرجني وأفحمني بأسئلة تظهر

Twitter: @MahmoodTayeb

تفوقه العلمي في اختصاصي، فأردفت قائلاً: «إنه سؤال لا يستحق الإجابة لأن موضوعه لا يدخل في مادة علم الاقتصاد، بل إن طلاب الصف الأول في قسم الإدارة يدرسونه في بدء السنة الأولى من دراستهم».

وهنا صاح أحد طلاب الصف الرابع وهو أردني بعثي ينتمي إلى مكتب الطلاب القومي في القيادة القومية وكان اسمه إما «تحسين أو تيسير» لا أذكر ذلك بالضبط:

«أيها الرفيق تريد من أبنائك الطلبة أن يناقشوه أو يردوه وها هو أمامك وأنت الرفيق العظيم صدام حسين يردك ولا ترد عليه. إن هذا الأستاذ هو عنصر خطير تتلمذ في معهد موريس توريز في باريس وتعلم كيف يخلق الخلايا الثورية في الجامعات. إنه متخصص في ذلك». فأسكته النائب وسادت لحظة صمت وسكون بعد ذلك. كان ذلك تحريضاً عنيفاً ضدي وإثارة قوية لصدام لا يقدم عليها إلا إنسان متدرب ومن مستوى معين. ثم لزم النائب الهدوء وتوجه إليّ بسؤال هادىء أدخل فيه بعض المصطلحات التي تُستخدم في الرياضيات الاقتصادية، محاولاً بذلك الإيحاء للطلبة بأنه يفهم الاقتصاد الرياضي ويفهم المعادلات التي كانت تعتمدها الخطة والدراسات الاقتصادية خصوصاً في وزارة التخطيط.

كانت تلك فرصة لي لكي أبدي قوتي العلمية في اختصاصي، وكان جوابي أشبه بمحاضرة أكاديمية في استخدام الرياضيات في الاقتصاد مخطّئاً في الوقت نفسه الخطة والاستخدام الرياضي من قبل

Twitter: @MahmoodTayeb

خبراء مجلس ووزراء التخطيط في تهيئة الخطط الاقتصادية ومبيّناً بأدلة علمية ورياضية بأنها ستقود الاقتصاد العراقي إلى الهاوية.

وكان ينصت إلي بهدوء وصبر حتى أنه طرح عليّ سؤالاً آخر يتعلق بالتصنيع العسكري كنموذج للتنمية الاقتصادية في العراق. وكانت فعلاً فرصة أخرى لكي أشرح المفاهيم التي أؤمن بها فعلاً لكيفية تحقيق التنمية ومخطّئاً الأسس الفكرية والرياضية للنموذج المتبع وهو النموذج العسكري. وأوضحت بجلاء أن اعتماد التخطيط والتنمية على النموذج المنفرد المتمثل بتصنيع الآلة العسكرية لا يؤدي إلّا إلى الانهيار، لأنه نموذج يؤدي بالنتيجة إلى الحروب التي بدورها لا تخدم عملية التنمية بل توقفها.

كان طرحي جريئاً ولكنه هادىء ومقنع، بحيث إنه اقتنع أن يسمع الموضوع (القضية) مني مباشرة، وقال لي بالحرف الواحد: «أسمح لك الآن أن تسرد لي موضوع تفنيد الشعارات كيف جرى ولماذا». وقد حصرت إجابتي بالطرح الأكاديمي الصرف، وشرحت له موضوع المحاضرة وفصّلت له آلية تحول الناتج القومي إلى الدخل القومي وكيف يتمّ التبادل بين عناصر الإنتاج وعناصر التوزيع وما هو موقع قوى الإنتاج ودورها في هذه العملية.

توجّه مرة أخرى إلى الطلبة وبدأ يختار من الطلاب والطالبات عناصر معينة يسألهم عن موقفهم، فكانت جميع الإجابات تعكس دعمهم لي ودفاعهم عني مما زاد من قوة معنوياتي، وأعتقد أن موقفي الجريء هو الذي دفع الطلبة أن يطرحوا هذه المواقف الرائعة في الدفاع عن أستاذهم وعن حرمة الجامعة وحرمة العلم. وكان ردّ فعله

Twitter: @MahmoodTayeb

أنه لم يُخفِ انفعاله من ذلك فتوتر من جديد وبدأ يهدّد بعض الطالبات اللواتي لم يتراجعن عن موقفهن.

لقد أثرت أثناء إجابتي بأنني لست حزبياً لذلك لم أكن أعرف أن تلك المقولة كانت شعاراً حزبياً... المفروض أن هذه الشعارات ترفع في الكلية لكي نعرف ذلك وبالتأكيد سنحترمها لأنها شعارات سياسية تتبناها السلطات الحكومية ونحن كأساتذة علينا احترامها وطاعتها كبقية المواطنين، فأبدى استغرابه لعدم رفعها في الكلية وسأل باستنكار واستغراب عن سبب ذلك، فانبرى العميد هادي التميمي يهاجمني ويقول له عني إنه «كذاب ومتآمر ومشعوذ»، وإنه لم يعرفني كأستاذ في الكلية فما كان من الطلاب والطالبات إلا أن يكذبوا العميد وانبرى له رئيس الاتحاد الوطني لطلبة الكلية مكذباً إياه ومصدقاً الحقيقة التي أراد أن يطمسها العميد الخائف المرتجف الذي سبق أن قال لي: «لا تخف نحن معك»، ولكن إرهاب النائب له جعله يغيّر موقفه بشكل معاكس ليكون عنصر تحريض ضدي.

بعد ذلك قال النائب: «لقد مضت ثلاث ساعات بل أكثر على هذه المناقشات، وهناك ضيفي الرفيق شاوشيسكو رئيس جمهورية رومانيا ينتظرني في المجلس، فسأترككم تكملون النقاش مع الرفيق الدكتور صلاح الشيخلي وسنلتقي فيما بعد». ثم ترك القاعة.

وبدأ الدكتور صلاح الشيخلي (سفير العراق الجديد في لندن الآن) يطرح عليّ أسئلة وكأنه في جلسة تحقيق أمني، ثم اتهمني بالشيوعية (وللحزب الشيوعي العراقي آنذاك أربعة وزراء رسميين في مجلس الوزراء)، فناقشته بكل صراحة وموضوعية واتهمته بالنفاق

Twitter: @MahmoodTayeb

الفكري فهو يميل بكتاباته في جريدة الثورة وفي الصفحة المخصصة لثقافة الحزبيين البعثيين إلى الفكر الرأسمالي في الاقتصاد لكنه يمالىء الجو العام الداعي إلى الاشتراكية على طريقة البعث الخاصة، فما كان منه بعد أن أحرجته أمام الطلبة والخبراء الاقتصاديين إلا أن يفضّ الاجتماع ويأخذني على جهة ليطلب مني التوقيع على طلب باسمي وقد كتبه بخط يده ليقول لي بأن هذا الطلب يخلصني من النتائج الوخيمة التي قد تصل إلى حد الإعدام، قرأت الطلب وكان عبارة عن اعتذار للسيد النائب عما بدر مني، فوقعته مرغماً وأوصلني بعد ذلك الدكتور حميد الجميلي إلى بيتي وكان ذلك نحو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الثالث
الاعتقال والتحقيق

كان بانتظاري جميع الأهل وبعض الأصدقاء الذين تجمهروا في البيت ليعبّروا عن قلقهم واستيائهم، وفي المساء نشرت الإذاعات العالمية نبأ اللقاء والاجتماع بأسلوب مثير حيث ذكر كل من راديو لندن وصوت أمريكا وطهران ومونت كارلو تفاصيل الاجتماع تحت عنوان مثير جداً وهو (أستاذ في جامعة بغداد يتحدى صدام شخصياً في مواجهة حادة)، وقد تشاءمت بالتأكيد من ذلك وتوقّعت أن شيئاً ما سيحصل لي في اليوم التالي.

دخلت في الساعة الثامنة صباحاً إلى الصف الرابع/ قسم الاقتصاد لإلقاء المحاضرة المقرّرة بعد أن رفضت التحدث والإدلاء بأي شيء في القسم مع إخوتي وزملائي الأساتذة الذين كانوا في موقف حرج جداً لا يعرفون ماذا يفعلون، كانوا بانتظاري لمعرفة ما دار بالضبط ولكنني رفضت الكلام وتوجّهت إلى الصف.

وقبل توجهي التقاني الأستاذ الدكتور محمد سلمان حسن وكان متوتراً جداً وقال لي: «يجب أن نفعل شيئاً، يجب أن لا يمرّ هذا الأمر بسلام»، ثم قال لي بلهجة الأستاذ الحازم: «لقد حذرتك قبل

Twitter: @MahmoodTayeb

أسبوعين من أن شيئاً ما سيحصل لك»، فأعادني بالذاكرة إلى ما قاله لي بعد أن ألقيت محاضرة قبل أسبوعين عن أساتذة القسم وطلبة الدراسات العليا بعنوان (دور الكتلة الإسترلينية في تركيز التخلف الاقتصادي)، وكانت محاضرة قوية جداً في منطقها ودلالاتها، كانت تدور حول تركيز تراكم رأس المال المستنزف من الدول المتخلفة الأعضاء في الكتلة في مركزها في بريطانيا، وأخذت العراق نموذجاً لسهولة توفر الأرقام والمعطيات، وبتشكيل بعض المعادلات الرياضية توصلت إلى حساب النسب الحقيقية التي ساهم العراق بموجبها في تحقيق التراكم في بريطانيا وهو البلد المتقدم اقتصادياً مقابل اللاتراكم أو الإفقار المتحقق نتيجة ذلك في العراق، وهو ما يشكِّل بدوره العامل الأساس في التخلف الاقتصادي، ثم قمت بعد ذلك بموجب معادلات أخرى بتعميم النموذج العراقي على مجمل البلدان الأعضاء في المنطقة الإسترلينية واستخلاص الاستنتاجات التي كنت أبغي الوصول إليها.

كان بعض القياديين في القيادة القومية لحزب البعث حاضرين، أتذكر منهم أمين الحافظ (السوري) وبدر الدين المدثر (السوداني)، وفي نهاية المحاضرة جاء الأساتذة والطلبة يهنئونني على المحاضرة ومن بينهم أمين الحافظ الذي قال لي بالحرف الواحد: «إنك نموذج غير مكرر للأساتذة»، إلّا أستاذي وأخي الفاضل الدكتور محمد سلمان حسن الذي شدّ على يدي وقال لي: «احزم حقيبتك فسيحصل لك شيء ما قريباً وبأية حجة أو مبرر، لقد تحرشت علمياً وبقوة إقناع غريبة بمن لا يجوز التحرش به».

كنت مستاء جداً ومتوتراً بعض الشيء، فطلبت من الطالب

Twitter: @MahmoodTayeb

الأردني الذي شهد زوراً ضدي أمام صدام وتجاوز حدود الأدب والاحترام أن يغادر الصف قبل البدء في المحاضرة، فرفض ذلك لكن الطلبة بمن فيهم رئيس الاتحاد الوطني أجبروه على ترك الصف، وبينما كنت منغمساً في المحاضرة وكانت الممسحة بيدي اليسرى والطباشير بيدي اليمنى، فتح الباب وإذا برئيس القسم الدكتور حميد الجميلي ومعه شخصان تبين فيما بعد أنهما ضابطان في الأمن العام يدخلون إلى الصف، ويطلب مني رئيس القسم إيقاف المحاضرة والخروج إلى خارج الصف، قادني بعدها ثلاثتهم إلى الساحة الرئيسية للكلية بعد أن وضعوا الأصفاد (الكلبجة) في يدي ثم قادوني إلى خارج الكلية ليدخلوني إلى إحدى السيارات الواقفة في باب الكلية الخارجي.

كان الموقف رهيباً وعصيباً إذ كان الصف الرابع الذي اقتادوني منه يقع في آخر مبنى الكلية. رأيت الطلاب جميعاً متجمعين في طابورين متقابلين وكنت أسير بين هذين الطابورين والصمت يخيّم على الجميع وعلى ساحة الكلية، شعرت في حينها بأن المسافة بين الصف الرابع والباب كأنها عدد من الكيلومترات، وصلت السيارة التي أقلتني وكانت مليئة برجال الأمن السريين (ممن يرتدون الملابس المدنية) واحد منهم جلس في المقدمة إلى جانب السائق واثنان يحيطان بي في المقعد الخلفي إلى مديرية الأمن العامة مقابل القصر الأبيض؛ دخلت السيارة إلى المبنى الرئيس ثم اقتادني الرجال الأربعة إلى الطابق الثاني في المبنى.

ثم أدخلوني إلى غرفة كبيرة يتصدرها مكتب ضخم يجلس خلفه رجل يبدو أنه من رجال الأمن المحترفين، وقد وضع على المكتب

Twitter: @MahmoodTayeb

لوحة صغيرة كتب عليها (قاسم الراوي المعاون السياسي لمدير الأمن العام)، وأمام المكتب جلست بعض طالباتي وواحد من طلابي، ميّزت منهن الطالبة سلمى عبد الرحمن ضياء وسراء طالب النائب وبتول جهاد وشوان (أجهل اسم أبيها)، أما الطالب فكان سلام محمد أمان وهو أحسن طلاب الصف الثاني وأبرزهم علمياً وسلوكياً، أمرني بالوقوف أمام المكتب ثم صاح بي الرجل المسؤول وهو ينتفض واقفاً أمام المكتب: «هل أنت شريف؟».

فأجبته: «عن أي شرف تتحدث وأنا في هذا الموقف والأصفاد في يدي». فبصق في وجهي وقد سدّ البصاق عيني اليمنى.

فما كان من الطالبات إلا أن انفجرن بالبكاء، ثم اقتادني رجال الأمن إلى غرفة مجاورة خالية إلا من كرسي وطاولة مهملة ونزعوا الكلبجة من يدي.

انتظرت في هذا المكان بضع ساعات ليبدأ التحقيق معي الذي استغرق أكثر من عشر ساعات في غرفة أخرى تبدو وكأنها غرفة أحد المديرين.

كان عدد المحققين أحد عشر محققاً يبدو أنهم بدرجة مدير أمني أو مدير شعبة وبينهم طبيب عرفت اسمه وهو (علي سلوم) يبدو أنه طبيب الأمن الخاص، وكانت اللجنة برئاسة عبد الرزاق شريدة مدير المكتب السادس، على ما أعتقد، وهو المكتب الأمني المرتبط بمجلس قيادة الثورة، وقد شمل التحقيق كل ما يتعلق بحياتي وسلوكي وأفكاري وعلاقاتي وارتباطاتي، تمَّ توجيه الاتهام لي بنشر أفكار التمرد والثورة ضد النظام وضد أفكار صدام حسين وشعاراته، وكان

Twitter: @MahmoodTayeb

واحد منهم يدوّن كل ما أقول. ونحو الساعة الثانية صباحاً وقّعوني على ما قاموا بتدوينه ثم اقتادوني إلى الطابق الأرضي وأدخلوني إلى مكتب مدير الأمن العام الذي جلس خلف مكتبه وطلب مني الجلوس على إحدى الأرائك، وكان اسمه عبد الخالق عبد العزيز من أهالي الموصل ومن أقارب عائلة موصلية عريقة معروفة تدعى (بيت توحلة) وعرفت بعد ذلك، أنه شقيق أحد أصدقائي القدامى وزملائي في كلية التجارة والاقتصاد في جامعة بغداد وهو عبد الغني عبد العزيز الذي كنت أكنّ له كل الود والاحترام، ثم تحدث إلي المدير العام بكل هدوء واتزان وطلب مني الاعتراف، وقال لي بالحرف الواحد: «قد أتعبت المحققين وأتعبتنا خلال أكثر من عشر ساعات، أطلب منك الاعتراف وأعطيك مهلة أن تفكر الآن وحتى الصباح، وإن لم تعترف فسوف نستخدم أساليبنا المعروفة في انتزاع اعترافك». حاولت إقناعه بأنني لا أملك شيئاً أخفيه وليس لديّ أي اعترافات أو أقوال غير التي بيّنتها في التحقيق، وحاولت أن أفهمه بأنني مخلص في عملي وأنني جدّي جداً وحريص على إعطاء الطلبة المادة العلمية المطلوبة وبأنني أحاول أن أخلق جواً أكاديمياً حقيقياً وأبذل كل جهدي للارتقاء بمستوى الطلبة والكلية، فأجابني بأنه يعرف كل شيء عني، ثم شبّهني بالبقرة الحلوب التي تعطي الحليب ولكنها في النهاية تملأ صفيحة الحليب بفضلاتها، نكّست رأسي حينئذ ولم أجد جواباً.

اقتادني بعد ذلك أحد ضباط الأمن إلى مبنى صغير يحتوي على مدخل ثم ساحة صغيرة فيها عدد من الزنزانات التي كانت مساحة كل زنزانة فيها نحو مترين في مترين، وكان باب الزنزانة من الحديد المشبك بقضبان حديدية بحيث تسمح لي بالنظر إلى الساحة المكشوفة

Twitter: @MahmoodTayeb

الصغيرة. خلعت حذائي ووضعته تحت رأسي بعد أن سحبوا حزامي مني لأغطّ في نوم عميق على الأرض الإسمنتية الجرداء ولم أحس ببرودتها وبرودة الجو، استيقظت على صوت أحد ضباط الأمن يناديني: «انهض، واخرج بسرعة» كان الوقت الساعة السابعة صباحاً، كان الضابط أشقر وأعرف وجهه، إنه من أهالي الأعظمية (الحي الذي أعيش وترعرت فيه) وكان يسير راكضاً ويطلب مني الركض وراءه، حتى جاء بي إلى مكتب مدير الأمن العام، ظننت حينئذٍ أنه سينفذ تهديده السابق وسأتعرض إلى جلسة تعذيب، وعند دخولي المكتب وجدت وزير الداخلية عزت الدوري جالساً على الأريكة الكبيرة في الجانب الأيمن وبجانبه يجلس مدير الأمن العام بكل أدب واحترام، وقفت أمامهما بعد أن حييتهما وأجاب الوزير بتحية مناسبة ولطيفة، وبعد أن انسحب ضابط الأمن الذي اقتادني طلب مني الوزير الجلوس على الأريكة التي أمامه، وبعد أن حاولت الجلوس طلب مني المدير العام أن أسلم على السيد وزير الداخلية الأستاذ عزت الدوري، حييته ثانية وأمرني بالجلوس.

توجه إليّ وزير الداخلية بالكلام وبصوت هادىء جداً وتبدو عليه علامات التعب والإرهاق، قال لي بأنه جاء مباشرة من اجتماع مجلس قيادة الثورة الذي عُقد برئاسة أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية لدراسة قضيتي والبحث فيها، وقد كلفه الرئيس البكر بعد دراسته أوراق التحقيق بأن يأتي لمواجهتي شخصياً ومعرفة حقيقة الأمر ليقدم تقريراً للمجلس حول القضية، أصابتني نوبة ضحك أخفاها الخوف من أن تنفجر، ولكنها عبّرت عن نفسها بابتسامة استغراب وبجواب استفهامي: «سيادة الوزير اسمح لي أن أقول لك

Twitter: @MahmoodTayeb

بأن الموضوع لا يستحق ذلك، إنها محاضرة صفية أكاديمية وقد أسيء فهمها لا أكثر ولا أقل. وقد أفهمت السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين بما جرى وفصّلت ذلك في التحقيق الذي درستم كل أوراقه». ثم طلب مني بأسلوب هادىء ومهذب أن أجيب عن ثلاثة أسئلة بكل صدق وصراحة بعد أن أثنى على صدقي وربما (وطنيتي)، السؤال الأول: «هل لديك تنظيم سري أو محاولات لتأسيس تنظيم سري؟»، السؤال الثاني: «ما هي علاقتك حالياً بإياد سعيد ثابت وأين هو الآن؟»، السؤال الثالث: «اشرح لي كيفية الموضوع، ماذا حدث بالضبط ولماذا؟».

أجبته بكل صراحة وصدق وتفصيل عن الأسئلة الثلاثة نافياً أن تكون لي أية علاقة بأي تنظيم سري وأية نية عن تأسيس مثل هذا التنظيم، وأن لا معرفة لدي بما آل إليه واقع إياد سعيد ثابت فقد كان آخر لقاء لي به في الشهر الأول من عام 1974، أما جوابي عن السؤال الثالث فقد شرحته له بواقعه الأكاديمي وشرحت له المحاضرة الصفية حول تحول الناتج القومي إلى الدخل القومي وكيف أسيء تفسير المحاضرة، ويبدو أنه اقتنع كلياً بأجوبتي، ثم سألني: «هل لديك شيء آخر تضيفه قبل أن تذهب إلى الزنزانة»، فأخبرته بأن المدير العام هدّدني بالتعذيب وأرى أن لا مبرر له حيث شرحت كل شيء وأجبت بصدق وصراحة عن كل سؤال وجّه إلي، ثم التفت إلى المدير العام وأمره بعدم مسّي على الإطلاق ومعاملتي بشكل محترم، ثم غادرت المكتب إلى الزنزانة.

وفي العاشرة صباحاً استدعيت إلى التحقيق مرة أخرى، ويبدو من سير التحقيق أن الدكتور عبد العزيز القطيفي والدكتور صلاح

Twitter: @MahmoodTayeb

الشيخلي قد اشتركا في التحقيق من حيث وضع الأسئلة ومن حيث تحليل أجوبة الجلسة السابقة، وبقيت خلال عشرة أيام كاملة خاضعاً للتحقيق اليومي، وكل يوم يأتي المحققون بأسئلة جديدة تناولت حياتي الدراسية في فرنسا وأفكاري ومعتقداتي ووضع أسرتي وأسرة زوجتي، وفي يوم آخر استدعاني مدير المكتب السادس رئيس اللجنة التحقيقية عبد الرزاق شريدة فوجدت عنده صديقي البعثي والمدرس في الكلية معي وجار الطفولة وزميل الدراسة في فرنسا الدكتور همام الشماع، قام لاستقبالي وعانقني وقبلني.

تركنا رئيس اللجنة وحيدين في المكتب، قال لي د. همام بأنه استدعي للتحقيق وأعطى شهادته وسألوه إن كان لي ارتباط تنظيمي سري أو لا، وأخبرني بأنه أجاب بالنفي على حدّ علمه، ثم طلب مني أن أخبره إن كان نفيه صحيحاً أو لا، لأنه كان قلقاً فيما إذا اعترفت بوجود تنظيم لي إذ قال بأنه «سيفقد رأسه كما أفقده» فطمأنته وشكرته على موقفه.

وبعد خروجه طلب مني رئيس اللجنة التحدث إلى الطالبات الموقوفات والطلب إليهن أن يأكلن الطعام لأنهن ممتنعات عن ذلك، فاستدعاهن من غرفة مجاورة له فقد أخبرني بأنه وضعهن بحمايته الشخصية إذ إنه لا يطمئن إلى إرسالهن إلى زنزانات التوقيف الخاصة بالنساء سواء في دائرة الأمن أو خارجها، وأقسم لي أنه يحافظ على شرفهن كما يحافظ على شرف بناته، تحدثت إليهن بذلك واستطعت أن أقنعهن بتناول الطعام وشكرتهن على موقفهن البطولي وشددت من عزمهن وشجعتهن على الصمود وعدم الخوف، وكنّ في الحقيقة أعلى حتى مما طلبت منهن فقد كنّ بمستوى عالٍ من المسؤولية والالتزام.

Twitter: @MahmoodTayeb

بعد انتهاء التحقيق بعدة أيام، أي بعد حوالي أسبوعين من توقيفي، استدعاني مدير الشعبة الثانية حيث كنت موقوفاً وهو سعد الأعظمي، فرحّب بي بكل احترام وأجلسني في الكرسي الواقع أمام مكتبه، وأخبرني بأنه يريد التعرف عليّ لأنه معجب بي وأنه يتابع دراساته العليا في القانون لنيل الدكتوراه مع زوجتي الدكتورة واثبة داود السعدي، وطلب مني أن أشرح له بعض المسائل الفكرية في الاقتصاد، ثم بدأ يسألني بعض الأسئلة الاستيضاحية عن الماركسية ومبادئها، ثم أخبرني بأنني موقوف لديه كضيف وأن مسؤوليته هي حمايتي، وطمأنني بأن أي تعذيب لن يمارس ضدي.

في الحقيقة كان التعذيب في هذه الشعبة يُمارس يومياً وبشكل لا يتصوره أو يقبله العقل، وأكثر الموقوفين الذين يتعرضون للتعذيب هم البعثيون المنشقون (جماعة سورية) والشيوعيون المنشقون (جماعة القيادة المركزية) والقوميون، وكذلك أنصار الجبهة الديمقراطية من العراقيين أو الفلسطينيين، وقد توفي عدد من الموقوفين بسبب التعذيب. فقد كان يزوِّدني بالأخبار وأنا في الزنزانة الانفرادية أحد الموقوفين وقد كانت له وحده حرية التجول في الساحة، كان من الأكراد واسمه رفيق البشدري، فقد كان يقف على بابي ويعطيني أخبار الموقف والموقوفين والتعذيب، كان هذا الشخص من وكلاء صدام الشخصيين والمندسين في القيادة الكردية وبالذات في حاشية الملا مصطفى البرزاني، وأخبرني بأن صدام كان يمدّه بالمال بلا حدود، ولأحد الأسباب التي لم يذكرها لي غضب عليه صدام ورماه بالتوقيف في دائرة الأمن. كان وقحاً وجسوراً ويبدو أنه من النوع المغامر وأنه شخص غير عادي على الإطلاق.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الرابع
بانتظار المحاكمة

بعد شهر كامل من السجن الانفرادي في الزنزانة الصغيرة ومن دون فراش وبملابسي التي جئت بها نقلت إلى الزنزانة رقم(1) في المكان نفسه، كانت الزنزانة بطول أربعة أمتار وبعرض مترين ونصف.

واستقبلني الموقوفون فيها أحسن استقبال وكان عددهم ستة موقوفين أحدهم ضابط بدوي من شمر في الجيش السوري، وقد أوقف في منطقة ربيعة في الموصل حيث كان في رحلة صيد فالمنطقة هناك لا يُراعى فيها وجود الحدود حيث إن نفس العشيرة تسكنها في الجانبين السوري والعراقي، وحين دخولي كان هذا الضابط يحتفل بمرور سنتين على توقيفه على ذمة التحقيق في هذا المكان ومن دون محاكمة ويسمى أبا حميدي.

والثاني ويسمى خليل حرية وهو صاحب مطبعة الحرية متهم بتنظيم عملية اغتيال لصدام حسين، أما حقيقة القضية فهي بعيدة كل البعد عن ذلك، إذ إنه اكتشف أن زوجته التي هي في عصمته منذ

Twitter: @MahmoodTayeb

أكثر من 35 عاماً وهي جدّة لها عدة أحفاد قد اكتشفتها اللجنة الفنية باتحاد نساء العراق بأن لها صوتاً يشبه صوت أم كلثوم فبدأ موسيقيو الاتحاد بإشراف روحي الخماش بتدريبها لكي تشارك باسم الاتحاد في مهرجان تونس الموسيقي لإحياء ذكرى السيدة أم كلثوم، وبالطبع فإنه منعها من ذلك بعد اكتشافه لهذا الموضوع لكنها استمرت من وراء ظهره فهدّدها بالقتل، فما كان منها إلا أن تآمرت مع اتحاد النساء على زوجها ورتبت له هذا الموضوع ورمته في غياهب سجون الأمن، وكان المسكين رغم كبر سنه يتعرض للتعذيب بشكل يومي، وفي كل ليلة كان يُستدعى من قبل ضابط الخفر ويقوم هو ورفاقه الضباط الخفر بالضحك عليه والاستهزاء به[1].

أما الثالث فكان أحد عناصر المخابرات السورية وقد قُبض عليه متلبساً بجريمة، إذ جاء بسيارة مفخخة من سورية لكي يفجرها في باب أو روز دي باك في شارع الرشيد في الساعة 6 مساء، والرابع كان سورياً أيضاً ولكنه من أتباع القيادة القومية، وكان أخوه (الملقب بطرابيه) من العناصر القيادية في مكاتبها في بغداد وقد أمر أخوه دائرة الأمن بتوقيفه لأنه كان من رواد الكباريهات والعربدة فطلب من الأمن تأديبه، أما الخامس فقد كان أحد عناصر الجبهة الديمقراطية من العراقيين وكانت إحدى ساقيه مبتورة نتيجة إصابته في

(1) زارني هذا الشخص في سجن «أبو غريب» حيث حكم عليه بالسجن بسبب قتله زوجته، بعد خروجه من دائرة الأمن، وقد تعرفت عن طريق المصادفة بعد خروجي من السجن على إحدى السيدات الفاضلات وهي أختها وقد أخبرتني بأن زوجها قتلها.

Twitter: @MahmoodTayeb

معركة مع الإسرائيليين واسمه (صالح)، وكان السادس طالباً صغيراً في الإعدادية المركزية في بغداد ومتهماً بانتمائه إلى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين واسمه فيصل غازي.

قاسمني خليل حرية بطانيته المفروشة على الأرض ورعاني رعاية جيدة، وبعد يومين من مكوثي في هذه الزنزانة جاء رجال الأمن بموقوف جديد ليستقر معنا وهو أحد طلابي المسمى سلام محمد أمان، وأخبرني بأنه موقوف منذ اليوم الأول لاعتقالي، وكان شاباً جيداً ذا أخلاق عالية وتربيته سامية وكان ذا التزام بموقفه فقد ضحىّ بمستقبله ودافع عني سواء أكان أمام صدام أم في التحقيق والاعتقال، وقاوم كل الإغراءات التي لوّح بها المحققون له، وأصرّ على موقفه، أخبرني بأن والده بعث إليه برسالة وصلته بطريقة ما بأنه يفتخر به وبموقفه وأنه شجعه على التزام موقفه، وقد أطلق سراحه بعد أسبوعين أي إنه أوقف لمدة خمسين يوماً مع فصله من الكلية.

أثناء وجودي في الزنزانة جاءتني أول رسالة وقد دسّها لي أحد رجال الأمن بعثها لي ابن خالي (عقيل عبد الكريم الصفار) الذي كان يدرّس المحاسبة في الثانوية التجارية المسائية، وكان هذا الرجل الأمني طالباً عنده، وقد طمأنني فيها على وضع عائلتي وزوجتي وأطفالي، وأنهم عرفوا من خلاله بأنني موجود في مواقف الأمن إذ إن السلطات منعت إعطاءهم أي خبر عني على الرغم من محاولات زوجتي وإخوتي إلى الحصول على أي خبر يفيد بواقع الحال أو المكان أو الوضع الذي أنا فيه.

بعد انقضاء شهر كامل في الزنزانة رقم (1) انتقلت إلى مبنى

Twitter: @MahmoodTayeb

آخر داخل دائرة الأمن حيث أُودعت في موقف كبير فيه حوالي أربعمئة موقوف تحت سقف واحد يطلق عليه الموقوفون والحراس (سفينة نوح) لاختلاف الموقوفين والقضايا وتنوعها فيه، وعند فتح الباب نادى الحارس على أحد الموقوفين وهو ناجي حداوي السعيدي صارخاً: «ناجي... استلم بورجوازي جديد». أخذني ناجي إلى آخر الموقف ليقدمني في الزاوية الأخيرة إلى البورجوازيين من الموقوفين (هكذا يطلق عليهم في الموقف) وأذكر منهم: ناجي حداوي السعيدي رئيس شركة الغزل والنسيج، وحمزة الباهلي وكيل وزارة الإسكان وأمين العاصمة السابق، والدكتور ذو الكفل طبيب من الموصل، ومحمود الراوي مدير إدارة مؤسسة مدينة الطب، وكيلان عقيد مظلي متقاعد يعمل في إحدى الشركات الأجنبية، وشاب صغير يدعى نزار الشابندر[1]، وفي الجانب الآخر من الزاوية كان أحد المقاولين الكبار واسمه برهان عبد الحسين الموسوي وعبد اللطيف بنية من كبار الرأسماليين العراقيين، وبين المجموعتين كانت مجموعة من حزب الدعوة في البصرة[2] وعددهم سبعون وأحد علماء النجف واسمه الشيخ كاظم الحلفي.

كل موقوف (عدا تنظيم حزب الدعوة) له قضيته المختلفة والخاصة به، منها ما هي سياسية ومنها ما تتعلق بأمور تخصّ صدام حسين ومنها ما تخصّ قضايا شخصية لقياديين آخرين في السلطة، ومنها أخلاقية، فالسيدان الباهلي والحداوي أمر صدام حسين

(1) أصبح بعد ذلك أحد قادة المعارضة العراقية في الخارج وواحداً من كبار الأغنياء.
(2) تمّ إعدامهم بعد ذلك في سجن «أبو غريب».

Twitter: @MahmoodTayeb

باعتقالهما لأنهما جادلاه في الندوة التي أُقيمت برئاسته حول الإنتاجية، والسيد كيلان أوقف لأنه لم يتقاسم العمولات مع السيد بارزان أخي صدام حسين، أما السيد الراوي فإنه متهم بالتحرش بإحدى العاملات الآشوريات في مدينة الطب وأمها تشتغل منظفة في بيت صدام فأخبرته بذلك وبدوره أمر بفصله وإيداعه الحجز لمدة سنة في دائرة الأمن.

بعد دخولي هذا الموقف نودي عليّ في اليوم الثاني لأستلم فراشاً وملابس ونقوداً أُرسلت من عائلتي وبفضل توسط ابن خالي عقيل الصفار عند طالبه المذكور سابقاً، وهذه أول مرة بعد مرور أكثر من شهرين أتسلم شيئاً من العائلة، ويبدو أنهم أرادوا أن يتأكدوا من وجودي في دائرة الأمن حيّاً إذ إن الحراس طلبوا توقيعي على الاستلام لكي يعرضوه على العائلة.

وفي اليوم نفسه جاؤوا بموقوف جديد هو المحامي ظافر نوري فاستقبلته ورعيته بجانبي وأعطيته من ملابسي التي استلمتها فقد جاء ببدلته... أعرفه جيداً فهو من أهالي الكرخ القدماء ومحامٍ كبير ومن الشخصيات اليسارية المعروفة وفي الوقت نفسه يسكن حيّ الكندي بالقرب من دار المحامي داود السعدي والد زوجتي، وقد أوقف بطلب من إحدى الشابات الفلسطينيات التي لها علاقة معينة بمكاتب القيادة القومية في العراق وكانت مستأجرة لإحدى الشقق العائدة للسيد ظافر وكانت تمتنع عن دفع الإيجار، وحين طالبها بالدفع أُودع في موقف الأمن وهو رجل في الستين من عمره ومن المحامين المعروفين ذوي السجل المهني والوطني المعروف، أخبرني بأن عائلتي لا تعرف أي شيء عني وأن أصداء قضيتي لا تزال تطغى على

Twitter: @MahmoodTayeb

الرأي العام الداخلي والخارجي وأن العراق بأكمله وكذلك الإذاعات الخارجية مستمرة بالحديث عن الموضوع، وأن هناك مطالبات دولية وحملة قوية في فرنسا تطالب بالإفراج عني، وبعد يومين من توقيفه تمكّنت من إقناعه بأن يتنازل عن الإيجار لكي يضمن كرامته وحريته وخرج من الموقف ووعدني بزيارة زوجتي لكي يطمئنها عني وعن وضعي، وكان ذلك فعلاً أول خبر موثوق يأتي إلى العائلة عن مصيري. كان الشيخ كاظم الحلفي يؤخذ يومياً الساعة 9 مساءً للتعذيب ثم يؤتى بعد حوالي ساعتين فاقداً للوعي بحيث كنا نعتقد أنه ميت لكنه بعد وقت معين يبدأ بالاستفاقة ويستعيد وضعه، أما عناصر حزب الدعوة فقد كان التعذيب متوقفاً عنهم بعد أن أحيلت قضيتهم إلى محكمة الثورة.

بعد انقضاء خمسة عشر يوماً في هذا الموقف نودي عليّ ووضعوا الأصفاد الحديدية (الكلبجة) في معصمي، وأخذوني إلى خارج الموقف حيث أحد البيوت القديمة التي أدخلت إليها، وفوجئت بوجود زوجتي وطفليّ: البنت حراء والولد ذو الفقار، ومعهم ابن خالي عقيل الصفار الذي استطاع أن يدبّر زيارة لي، وكان لقاءً مثيراً ولاسيما أن أطفالي رأوني مكبلاً بالحديد، وبعد أن تبادلنا القبلات والسؤال طلب عقيل من الحارس أن يفتح (الكلبجة) فاعتذر بدوره.

كان أول لقاء لي معهم منذ توقيفي ولم نستطع التحدث بالأمور الخاصة بالاعتقال وما لاقيت وذلك لوجود الحارس معنا ولوجود أجهزة التنصت، لكن زوجتي أخبرتني بأنهم تبلغوا في اليوم السابق بإحالتي إلى محكمة الثورة وطلبوا منهم توكيل محام لي، أخبرتها برفضي لفكرة توكيل محامٍ لأنني قادر على الدفاع عن نفسي وأن

Twitter: @MahmoodTayeb

قضيتي أكاديمية وسوف لن أسمح للمحكمة وبأسلوبي الخاص أن تحولّها إلى قضية سياسية، وقناعتي ثابتة بأن المحكمة ستكون صورية لأن القضية برمتها مفبركة وتهدف إلى غايات معينة حدّدها ورسمها النائب صدام حسين، وأنه اختارني لأكون الضحية لتوفر العناصر المناسبة لذلك في وضعي وواقعي، لكنها أصرّت وأفهمتني بأنها مجبرة على توكيل محام معين وقريب لرئيس المحكمة جار الله العلاف. شكرت الأخ عقيل على موقفه الذي لن يُنسى على الإطلاق فقد كان موقفاً جريئاً ومجازفاً قد يعرضه للأذى والضرر.

وبعد انقضاء شهر كامل على هذا الموقف نودي عليّ صباحاً لأخذي إلى محكمة الثورة التي لم أبلغ على الإطلاق بإحالتي إليها، حتى أن قاضي التحقيق وهو أحد معارفي في المنطقة التي أسكن فيها، وهو نزار الدفاعي، لم يخبرني عن ذلك حين صدق اعترافاتي وأقوالي، ولا مبعوث الدائرة القانونية في مجلس قيادة الثورة الذي أخذ توقيعي بدوره على محاضر التحقيق.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الخامس
المحاكمة

اقتادني بعض رجال الأمن في سيارة مدنية إلى محكمة الثورة في منطقة الكرادة الشرقية خارجاً، وهي تشغل فيلا كبيرة على الشارع العام أعرفها جيداً إذ إنها للتاجر المعروف عبد الرسول علي رئيس سابق لغرفة تجارة بغداد، وكان الدخول إليها من الشارع الجانبي، وعلى بعد 50 متراً من باب المحكمة. كان عدد من أهلي وعائلتي وأصدقائي متجمعين ويحول بينهم وبين الاقتراب من باب المحكمة عدد كبير من رجال الأمن وقد علت أصواتهم لتحيتي، كنت مكبلاً بالحديد ورفعت كلتا يدي المكبلتين بالأصفاد الحديدية لأحييهم.

دخلت المحكمة من الطابق الذي يقع تحت الأرض (السرداب) وكان يمثل غرفة التوقيف التي يودع فيها المتهمون قبل المناداة عليهم إلى قاعة المحكمة، كنت آخر من استقدموا ذلك اليوم فقد وجدت قبلي الشخص السوري المتهم بمحاولة تفجير السيارة المفخخة عند باب أورزدي باك، وكانت هناك مجموعة من الشباب عرفت منهم بأنهم متهمون كمجموعة واحدة بتنظيم خلية شيوعية في قوات الشرطة

Twitter: @MahmoodTayeb

يقودهم لاعب كرة معروف اسمه (بشار)، وكان هناك شخص يرتدي الملابس الكردية وهو متهم بحيازة مسدس، وهناك شابة صغيرة بعمر المراهقة ترافقها والدتها التي ترتدي باحتشام العباءة البغدادية المعروفة، وقد اتهمت هذه الفتاة بالتعرض لشخصية النائب صدام حسين أمام رفيقاتها من طالبات الثانوية الشرقية للبنات الواقعة في منطقة الكرادة الشرقية.

نودي بادىء ذي بدء على المجموعة المتهمة بالشيوعية[1]، فصعدوا بمجموعهم وبعد 45 دقيقة سمعت ضجيجاً شديداً إذ إن المتهمين نزلوا إلى غرفة التوقيف وهم يهتفون: سنمضي سنمضي إلى ما نريد... وطن حرّ وشعب سعيد... نموت وتحيا الشيوعية... الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من المشانق، وعرفت منهم أنهم حُكموا بالإعدام جميعاً... ثم نودي على الشخص الذي يرتدي الملابس الكردية، وبعد نحو نصف ساعة دخل إلى الموقف وهو يولول بالكردية إذ حكم عليه بالإعدام، ثم نودي بعد ذلك على الفتاة وصعدت ترافقها والدتها، وبعد نحو نصف ساعة سمعنا صراخها وعويلها، وجاءت إلى الموقف شبه منهارة وهي تبكي وتصرخ (حرام عليكم، حرام عليكم)، وكانت والدتها محافظة على رباطة جأشها تحاول إقناعها وإسكاتها، لقد حكم عليها بالإعدام. بعد ذلك جاء دور رجل المخابرات السوري، وبأقل من نصف ساعة جاؤوا به وهو

---

(1) علماً أن الحزب الشيوعي العراقي كان في ذلك الوقت حليفاً لحزب البعث العربي الاشتراكي في الجبهة الوطنية ومشاركاً في الحكم بأربعة وزراء، وبكادر كبير من السفراء وكبار الموظفين.

Twitter: @MahmoodTayeb

مغمى عليه فقد حكم عليه بالإعدام ولم يتحمل الصدمة بعد تلقيه الحكم فأغمي عليه.

ثم جاء دوري فصعدت إلى الطابق الأول ودخلت قاعة المحكمة وكانت قاعة صغيرة بمقاييس تقارب 12م × 10م، تتصدر القاعة منصة عالية يجلس فوقها وراء كاونتر مغلق رئيس المحكمة وعضوان واحد إلى اليمين وآخر إلى اليسار، وإلى يساري عند الدخول تقع منصة المدعي العام، وعلى يميني منبر صغير للمحامي، وفي وسط القاعة ينتصب قفص الاتهام وهو مربع بحدود مترين ونصف × مترين ونصف، وبين جانبي القفص الأيسر ومنصة هيئة المحكمة منبر صغير للشاهد وضع عليه قرآن كريم مغلَّف بقماش أخضر اللون.

كان رئيس المحكمة جار الله العلاف من أهالي الموصل يرتدي الملابس المدنية، وعلى يمينه اللواء راغب فخري بالملابس العسكرية، وهو شخص أعرفه فقد كان مدعياً عاماً للمجلس العرفي العسكري سابقاً، وعلى يسار رئيس المحكمة يجلس شخص آخر يرتدي الملابس العسكرية وأعرفه جيداً فقد كان أحد أصدقائي أثناء مرحلة الدراسة الجامعية، وهو أسامة الأفغاني من أهالي الموصل وكان طالباً في كلية الحقوق في نفس الفترة التي كنت فيها طالباً في كلية التجارة والاقتصاد، وكان بعثياً نشيطاً في حينها وتربطني معه زمالة قوية وكذلك مع أخيه عبد الإله الأفغاني الذي كان طالباً في معهد الإدارة. طلب مني رئيس المحكمة التعريف باسمي وهويتي وقرأ قرار الإحالة، كان المحامي يقف وراء منبره على يميني وهو رجل في الستينيات من عمره، سألني رئيس المحكمة إن كنت مذنباً أو بريئاً

Twitter: @MahmoodTayeb

فأجبته بأنني بريء، ثم سألني إن أعطيت موافقتي على المحامي فرفضت في البداية اتخاذ محامٍ معين، ولكنه قال لي إن عائلتي هي التي وكّلته فوافقت حينئذٍ.

غير أنني تحفظت على ذلك وأخبرت رئيس المحكمة بأن المحامي لم يلتقني قبل ذلك إطلاقاً ولا أعرف إن كان قد درس أوراق القضية أو اطلع عليها. لكنني أتذكر أن زوجتي حينما زارتني أخبرتني أنها أرغمت على توكيل هذا المحامي لأنه من أقارب رئيس المحكمة جار الله العلاف بل شريكه.

ثم بدأ ينادي على الشهود، فكان الشاهد الأول هو الطالب الأردني الذي كان يثير ويحرّض نائب الرئيس صدام حسين أثناء اللقاء، وبدأ يدلي بشهادته ويفتري بشكل واضح، وبعد أن أنهى شهادته طلب مني الرئيس مناقشته فأخبرته بأن لي اعتراضين على شهادته: أولهما أنه مسيحي فلا يؤخذ بقسمه لأنه أقسم على القرآن وليس على الإنجيل. وثانيهما: أن المحاضرة التي ألقيتها وعُدَّت تفنيداً لشعارات الحزب (من لا ينتج لا يأكل) كانت في الصف الثاني من قسم الاقتصاد بينما هذا الطالب هو في الصف الرابع من القسم نفسه. فما كان من رئيس المحكمة إلا أن سأله عن صحة اعتراضي فأجابه بالإيجاب، فانفعل بذلك رئيس المحكمة ونهره بشدة وقبل أن يغادر هذا الشاهد قاعة المحكمة طلب من رئيسها حمايته مدعياً بأن مئات (وليس عشرات) من أهلي، وأقاربي وأصدقائي وأبناء عشيرتي (الخزاعل) يتجمعون في الخارج وأنهم قد هدّدوه، فاستجاب القاضي لذلك وطلب من الجهة المسؤولة توفير الأمن له.

Twitter: @MahmoodTayeb

ثم نودي على الشاهد الآخر وكانت طالبة في الصف الرابع كذلك وهي مسؤولة حزبية عن الصفوف الرابعة اسمها على ما أتذكر (سهام)[1] فأدلت بشهادة كاذبة ناقضت فيها كل ما قالته أمام النائب أثناء اللقاء وحين وجه إليها سؤالاً حول القضية... بعد انتهاء شهادتها طلب مني الرئيس التعليق على شهادتها، فاعترضت كما اعترضت على الشاهد السابق بأنها طالبة في الصف الرابع وأن الشعارات نوقشت في الصف الثاني وطعنت في صدق شهادتها. ثم نودي على شاهد آخر هو الطالب خالد دانيال وكان كسابقيه طالباً في الصف الرابع، وقد جاءني بعد أن خرجت من السجن وأخبرني بأنه هدّد من قبل البعثيين في الكلية ومن قبل رجال الأمن لأنه آشوري وليس له سند وأنه استُجاب لهم لخوفه وعدم قدرته ردهم. وأخبرني بأنهم عجزوا عن أن يجدوا ولو طالباً واحداً في الصف الثاني يوافق على الإدلاء بشهادة كاذبة ضدي.

بعد ذلك طلب مني رئيس المحكمة بالإدلاء بإفادتي فبدأت بإدلائها شفهياً لأن مسؤولي الأمن والمعتقل في دائرة الأمن رفضوا لمرات عديدة طالبتهم فيها بتزويدي بأوراق وأقلام، وقد حصرت إفادتي بشكل كامل في موضوع المحاضرة ضمن إطارها العلمي والأكاديمي البحت. حاول رئيس المحكمة مناقشتي لكنه لم يتمكن لجهله الكامل كما يبدو في علم الاقتصاد أو في علم الرياضيات.

---

(1) كوفئت بعدئذ على شهادتها الكاذبة فأعطيت منحة على الدكتوراه على الرغم من أنها كانت طالبة غير لامعة، وقد عينت بعد ذلك أستاذة في قسم الاقتصاد في الجامعة المستنصرية.

Twitter: @MahmoodTayeb

حاول في بادىء الأمر أن يطلق بعض عبارات الاستهزاء أو الاستخفاف لكن موقفي كان حازماً وجدياً ولاسيما أنني ركّزت على الجانب العلمي، وبعد أن انتهيت من إدلاء الإفادة بالشكل الذي بينته هاجمني رئيس المحكمة واتهمني بأنني لم أحترم السيد النائب صدام حسين حين كنت أناديه أثناء اللقاء بكلمة (أستاذ) ولم أقل له أثناء مخاطبته (سيدي)، أجبته بأنني أستاذ جامعي ولست عسكرياً ولم أتعود أو حتى أسمع سابقاً بأن مسؤولي الدولة يخاطبون بكلمة (سيدي).

بعد أن فرغت تماماً من إفادتي ومن الدفاع عن نفسي توجّه رئيس المحكمة إلى المحامي وطلب منه أن يلقي دفاعه عني، فأجاب المحامي معتذراً بأنه يكتفي بدفاع موكله. فوجئت حينئذ بجواب المحامي إذ إنه مخالف لكل أصول المرافعات وإن مثل هذا الموقف لم يسبق أن حصل (على الأقل أمامي) طيلة حياتي ولاسيما أنني من بيئة قريبة جداً من القانون والقضاء. فإن زوجتي قانونية مختصة والدها المحامي داود السعدي يُعدّ من أشهر محاميي العراق، وإخوتها الخمسة محامون وواحدة من أخواتها قانونية، وأعمامها قضاة سابقون ورؤساء محاكم، وعديلي وهو ابن عمها كان في وقت محاكمتي نائب رئيس محكمة تمييز العراق، وابن أخي محام وابن عمي محامٍ وابن عمتي كذلك، وأكثر أصدقائي هم من كبار المحامين والقانونيين أمثال عبد الرزاق شبيب ومالك دوهان وقاسم المفتي وغربي الحاج أحمد وأحمد الحبوبي وزكي جميل حافظ وتوفيق المؤمن ومحمد العبطة وعباس الجابري وحازم المفتي وحامد مصطفى وشاكر ماهر وغيرهم، وعدد كبير من أفراد العائلة لهم صلة بشكل أو

Twitter: @MahmoodTayeb

بآخر بالأمور القانونية والقضائية. التفت رئيس المحكمة بعد ذلك إلى المدعي العام وطلب منه إلقاء لائحته، فبدأ بإلقائها وهو يرتدي الزي العسكري واسمه على ما أتذكر (ثامر الشيخلي)[1]، وقد هاجمني بشراسة ووجه إليّ اتهامات خطيرة منها:

ـ تسميم أفكار الطلبة وتخريب عقولهم باتجاه مضاد للثورة.

ـ نشر الأفكار الماركسية المناهضة لأفكار الحزب..

ـ عقد حلقات الدرس مع أساتذة آخرين ممن أسماهم بالحاقدين وقد ذكرهم بالاسم، وهم الدكتور إبراهيم كبة والدكتور محمد سلمان حسن[2] (سبق أن أخبرتني زوجتي أثناء زيارتها لي في دائرة الأمن بأن جريدة الوقائع العراقية نشرت قرار مجلس قيادة الثورة القاضي بفصلي من الخدمة بناءً على مقتضيات المصلحة العامة، وإحالة كل من الأساتذة إبراهيم كبة والدكتور محمد سلمان حسن والدكتور طارق العزاوي والدكتور خضير عباس المهر إلى التقاعد).

ـ محاولة خلق حركة ثورية داخل الجامعة تهدف إلى قلب نظام الحكم.

ـ إهانة السيد النائب وعدم احترامه والاستهزاء والاستخفاف به. وبعد إلقاء هذه التهم طالب بإدانتي بالتآمر على سلامة الدولة

---

(1) لا أعني بذلك ثامر الشيخلي الشخصية القضائية المعروفة بنزاهتها الذي عمل مدعياً عاماً في محكمة الكرادة الشرقية.

(2) أصيب بالجنون نتيجة التعذيب ومات منتحراً بعد أن أحرق مكتبته الخاصة في داره.

Twitter: @MahmoodTayeb

وأمنها وإنزال أشد العقوبات (الإعدم) بموجب المواد الأمنية (السياسية) في قانون العقوبات.

بعد أن أنهى المدعي العام إلقاء لائحة الاتهام وطلب الإدانة أمر رئيس المحكمة برفع الجلسة للتداول واتخاذ قرار الإدانة والحكم، أنزلت إلى موقف المحكمة الذي وجدته خالياً. وبعد انتظار دام لفترة غير طويلة نودي عليّ مجدداً فصعدت برفقة ضابط الأمن إلى قاعدة المحكمة ووقفت في قفص الاتهام، وألقى رئيس المحكمة قرار الإدانة والحكم عليّ بموجب المادة (226) بدلالة المادة (223) من قانون العقوبات بالسجن لمدة ثلاث سنوات واحتساب مدة موقوفيتي. ثم بدأ رئيس المحكمة بعد ذلك يعلّق على القرار بقوله إن الثورة ومجلس قيادتها وخصوصاً السيد النائب طلبوا من المحكمة العطف والرأفة بالمتهم، وإن هذا الحكم لا يتناسب مع حجم الجريمة، ثم سألني: «ما هو رأيك في الحكم؟»، فأجبته بأنني لا أعارض أي حكم يصدر بحقي من قبل المحكمة ولا أطعن في عدالة المحكمة[1].

أخذني ضابط الأمن بسيارته (الفولكس واكن) الصغيرة إلى الأمن العام بعد أن حييت جموع العائلة والأصدقاء الذين كانوا ينتظرون قرار الحكم، وأشرت إليهم بيدي أن الحكم 3 سنوات، واتجهنا إلى الموقف العام (سفينة نوح) لكي آخذ أغراضي فكان

(1) كان قرار الحكم الصادر بحقي هو آخر قرار يصدره جار الله العلاف. فقد تلاه في الساعة 1:45 بعد الظهر وغادر إلى بيته، وأثناء محاولته تناول طعام الغداء أصيب فجأة بجلطة دماغية أقعدته مصاباً بالشلل الكامل إلى حين وفاته بعد مدة.

Twitter: @MahmoodTayeb

الموقوفون جميعاً ينتظرون نتيجة المحاكمة، خصوصاً أن أحد الموقوفين من البعثيين والسلطويين وهو محمود الراوي أشاع خبراً بينهم بأنني حُكمت بالإعدام (بعد أن ادعى أن أخاه الذي يعمل في دائرة الأمن نفسها أخبره بذلك)، صعدت بعد ذلك إلى سطح دائرة الأمن برفقة الضابط لأخذ بصمات أصابعي وصوري وصوّر لي واحدة أمامية والأخرى جانبية.

وبعد الانتهاء من ذلك توجهنا بالسيارة نفسها إلى سجن «أبو غريب» الذي يبعد عن بغداد نحو 40 كلم.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل السادس
سجن «أبو غريب»

كان الضابط المرافق منذ بداية المحاكمة وحتى السجن من أهالي الفلوجة، وكان أحمر الشعر واللون يبدو وكأنه يعرفني، كان متميزاً جداً بأخلاقه الجيدة وبطيبته فقد رفض وضع (الكلبجة) في يدي منذ أخذي إلى المحكمة من موقف الأمن. وأوصلني إلى مأمور السجن فقد كان الدوام منتهياً إذ إننا وصلنا بعد الساعة الرابعة عصراً، وكان مأمور السجن واسمه (عريبي) ضابط الخفر المسؤول لذلك اليوم.

فاقتادني إلى المحجر وأودعني فيه إلى اليوم التالي، والمحجر هو بمثابة زنزانة التوقيف داخل السجن حيث يودع فيه المخالفون للنظام أو الذين يرتكبون أعمالاً مخلّة بالأمن أو بالشرف داخل السجن، وكان فيه سجين واحد فقط وعرفت بعد ذلك أنه مصاب بلوثة عقلية، فسألني عن صحة الرئيس البكر وعن موضوع الوحدة العربية... أين وصلت... وما هي نتائج المباحثات. وبيّن لي أنه قلق على صحة أحمد حسن البكر وأنه يخشى أن صدام حسين سوف

Twitter: @MahmoodTayeb

لا يحقق الوحدة العربية. ثم انفجر بالبكاء قلقاً على مصير البكر ومصير الوحدة.

بعد حوالي ساعتين جاءتني مجموعة من السجناء الشباب والمليئين بالحيوية تتكون من 3 سجناء هم توفيق جورج وسمير والدكتور طارق شكر محمود مع مأمور السجن. سلموا علي وقدموا لي أنفسهم وأخذوني معهم إلى جناحهم الواقع في الطابق العلوي. وأخبروني بأنهم كانوا ينتظرونني منذ مدة طويلة، إذ إنهم وباقي السجناء تابعوا باهتمام قضيتي التي شاعت في كل أنحاء البلاد وأثارت جميع فئات المجتمع، وإنهم أجبروا مأمور السجن الآن على أن لا أمضي ليلتي في المحجر. وبدأ كل السجناء في الجناح الذين تجمهروا للسلام علي وللتعارف معي بشرح قضاياهم، وعلمت حينها أن هذا الجناح مخصص للسياسيين (الجرائم الأمنية) وللمحكومين بالقضايا الاقتصادية وخصوصاً من البعثيين المسؤولين في السلطة.

قضيت الليل معهم، وفي الصباح اقتادتني شرطة السجن لمقابلة مدير سجن الأحكام الخفيفة الذي أودعت فيه للتعرف عليَّ وتخصيص مكان لي في الجناح المذكور. وفي غرفة المدير التقيت السجين الدكتور عبد الله سلوم السامرائي عضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي ووزير الإعلام (الثقافة والإرشاد) في حكومة انقلاب 1968، وبعد أن سلّم عليَّ وتعارفنا شدّ على يدي وقال لي بأنني رفعت رؤوس العراقيين وحافظت على كرامتهم وشرفهم، وطلب من مدير السجن تخصيص مكان لائق بي.

Twitter: @MahmoodTayeb

خُصِّص لي مكان في زنزانة حديدية مشبكة داخل الجناح مع سجينين آخرين أحدهما متهم بالتجسس لحساب الكويت والثاني لم أستطع معرفة سبب سجنه. انتظرت أياماً قليلة حتى جاء يوم المواجهة، ومنذ الصباح وصلت زوجتي وأطفالي برفقة أخي زوجتي رائد داود السعدي وأصدقائي مصطفى توفيق المختار وناصرة السعدون والدكتورة عالية أحمد سوسة[1]. ثم بدأ الأهل من الأخوات والأقارب والأصدقاء حتى ضاقت بهم ردهة السجن، مما اضطر إدارة السجن أن تخصّص مطعم السجن لاستقبال المواجهين والراغبين في زيارتي. وهكذا استمر الحال في كل مواجهة، ولم ينقطع عن زيارتي طيلة مدة مكوثي في السجن أخويّ مقداد وعادل، أما بقية الإخوة والأخوات والأقارب فكانوا ينظمون فيما بينهم مواعيد الزيارة.

كنت أستقبل أعداداً غفيرة وشباباً لا أعرفهم، ووفوداً من الأكراد فقد درّست عام 1975 في جامعة السليمانية، وعرفني الأكراد حينئذٍ بل منذ فترة نشاطي السياسي في فرنسا مناصراً قوياً لقضيتهم.

زارني في هذا السجن أثناء إقامتي فيه الأستاذ حسين جميل الذي جاء خصيصاً لزيارتي وقد تحمل أعباء السفر والانتظار في

---

(1) لم يتخلف هؤلاء الأصدقاء الثلاثة عن زيارتي أثناء المواجهات المسموح بها طيلة مدة سجني، وقد توفي مصطفى بالسكتة القلبية بعد أن حصل على عضوية المجمع العلمي العراقي الذي أصبح عضواً متفرغاً فيه، أما الدكتورة عالية فقد توفيت في حادثة تفجير بعثة الأمم المتحدة في بغداد. وبالنسبة إلى ناصرة فقد أصبحت رئيسة تحرير صحيفة بغداد أوبزرفر وتركت العراق لتعيش في دمشق بعد السقوط.

Twitter: @MahmoodTayeb

الطابور الطويل وختم يده بخاتم السجن وصيحات وزجر السجانين (شرطة السجون)، كذلك زارني الأستاذ إسماعيل خير الله وزير خارجية عبد الرحمن عارف إذ كان سجيناً في سجن الأحكام الثقيلة وترددت زياراته إليّ، ومن سجناء الأحكام الثقيلة زارني أيضاً الأستاذ عزيز علي المونولوجست المعروف، وصديقي وأستاذي الدكتور هاشم الدباغ وكلاهما كان يقضي عقوبة السجن المؤبد وكانا يتمتعان بمعنويات عالية جداً وإرادة صلبة وكانا يشدّان من أزري ويشجعانني على الصمود والثبات، أما من الأساتذة زملائي في الجامعة فلم يزرني منهم أي شخص على الإطلاق، لكن أصدقائي من طلبة الدراسات العليا كانوا يزورونني بانتظام وهم هلال إدريس وعصام الخفاجي وموفق، ومن المنتظمين في الزيارة من الأصدقاء لا أنسى الدكتور عبد الرسول عبد جاسم والدكتور عماد خدوري[1] وزوجته أم تمام، زارني كذلك محمود سليمان الضاري وظاهر خميس الضاري، وهم شيوخ المنطقة التي يقع فيها سجن «أبو غريب» وتربطني بهم وبابن عمهم إبراهيم الشلال علاقات صميمة وقديمة.

قمت خلال إقامتي في هذا السجن بتأسيس حديقة داخل الجناح الذي نقيم فيه، وكان الأهل يجيئون بالنباتات لغرسها فيها في كل زيارة يقومون بها، وأسست ساحة للعبة الإسكواش وأخرى للعبة التنس، ونظمت برنامجاً في مدرسة السجن لتعليم اللغة الفرنسية للسجناء الراغبين في ذلك.

---

(1) أحد العلماء النوويين المسؤولين عن البرنامج النووي، وقد هرب إلى كندا حيث يقيم مع عائلته المكونة من السيدة نيران زوجته وأولاده تمام ويمامة ونوفة.

Twitter: @MahmoodTayeb

بدأ الدكتور عبد الله سلوم بالقيام بزيارات متكررة لي وعقدنا لقاءات عديدة تبادلنا فيها معلوماتنا الثقافية عامّة وتوطّدت العلاقة بيننا إلى درجة كبيرة[1]، ومما زاد في توطيد العلاقة أنني نقلت معه إلى سجن خاص تمَّ عزلنا فيه نحن الاثنين تقوم بإدارته والإشراف عليه دائرة المخابرات العامة يتكون من جناحين صغيرين وغرفة ثالثة مع مطبخ كبير، وتفصل بين الجناحين حديقة مساحتها لا بأس بها وقاعة صغيرة، وقد تمَّ وضع كل منا في جناح، أما الغرفة الثالثة فقد جيء إليها بسجينين من الشباب هما صمصام الحاج حسين بليبش والآخر أحد أشقاء شاكر إبراهيم حليوة لا أتذكر اسمه، ويُشاع عنهما في السجن أنهما محكومان صورياً إذ إن المخابرات العامة زرعتهما بين السجناء، فرفضنا بإصرار إقامتهما معنا، وكان مدير السجن الخاص وهو نفسه مسؤول المخابرات في مجموع سجون «أبو غريب» (وهو من الشباب العشائري ومن عشائر الجبور) متجاوباً معنا فأبدلهما بشخص من البصرة كان بعثياً ومديراً عاماً لأحد المشاريع ويدعى شمخي (أبو نزار) حُكم عليه بالسجن بسبب الفساد المالي والإداري،

---

(1) كان الدكتور عبد الله سلوم سفيراً للعراق في إحدى دول أوروبا الشرقية حين حُكم عليه، إذ إنه أقصي من عضوية القيادتين القومية والقطرية بمؤامرة ضده حاكها له صدام حسين، وقد حُكم عليه بالسجن خمس سنوات لتعرضه لشخصية النائب صدام حسين أثناء حديث خاص بينه وبين صديقه وضيفه الدكتور عزيز القاضي أثناء زيارة له حينما كان د. عبد الله سفيراً في الهند، ويبدو أن الدكتور القاضي قد نشب خلاف بينه وبين د. عبد الله أدى في النتيجة إلى أن يحكم عليهما الاثنين بالسجن ثم التشريد.

Twitter: @MahmoodTayeb

واضطررنا للقبول به مع معرفتنا التامة بأنه مكلف بمراقبتنا وكتابة التقارير عنا، وفعلاً فقد اعترف لنا بذلك بعد فترة معينة.

أصبت أثناء إقامتي في هذا السجن بجلطة دماغية نقلت على أثرها إلى مستشفى السجن الذي يقع في سجن الأحكام الثقيلة وسهر على رعايتي فيها الدكتور هاشم الدباغ وعزيز علي، وبعد أن شُفيت أرجعت إلى سجني الصغير، وزارني فيه ولعدة مرات مدير السجون العام أحمد أمين الذي كان سفيراً في يوغسلافيا وتربطني به معرفة من خلال عديله الدكتور عبد الرحمن منيف فقد أوصاه كما أخبرني أحمد أمين برعايتي ومعاملتي بما يليق بي وبمنزلتي، وقد أخبرني في إحدى الزيارات بأن وزير المالية أصدر قراراً نُشر في جريدة الوقائع العراقية الرسمية يقضي بمصادرة أموالي المنقولة وغير المنقولة بناءً على الحكم الصادر ضدي من محكمة الثورة، ثم بعث إليّ نسخة من تلك الجريدة.

بعد فترة وجيزة عيّن ابن خال زوجتي وهو حسن ابن السياسي المعروف علي محمود الشيخ علي مأموراً لهذا السجن الصغير فقط، وكان بعثياً منظماً وتخرج في كلية العلوم السياسية، وفوجئت فعلاً لهذا التعيين لكنه أخبرني بأن الحزب رشحه لشغل هذه الوظيفة ليكون خير رقيب عليّ لأنه يعرف الكثير من أقاربي وأصدقائي وعائلتي وعلاقاتي بشكل عام[1].

كنا نمارس رياضة الأسكواش أنا وعبد الله بشكل يومي،

---

(1) بعد خروجي من السجن تمّ منحه بعثة دراسية إلى فرنسا لإكمال الدكتوراه في العلوم السياسية على نفقة وزارة التعليم العالي العراقية.

Twitter: @MahmoodTayeb

ونظمنا لنا برنامجاً منتظماً يشتمل على فقرات الرياضة والقراءة والكتابة وتبادل الآراء بشكل تحريري ثم المناقشة[1]، وقد وافقت إدارة السجن على إدخال الكتب إلينا وجاءت زوجاتنا بما كنا نطلبه من كتب ومراجع.

وقد أنجز كل منا عدة مشاريع ثقافية، فقد قمت بترجمة كتاب (الحساب الاقتصادي) لشارل بتلهايم وهو من الكتب النظرية المهمة والصعبة جداً في الاقتصاد الماركسي، وأنجزت ترجمة كتاب (النقود لدى ماركس) لسوزان برونهوف، وكتبت مقالاً مهماً في الردّ على الدكتور جلال أحمد أمين حول التخلف الاقتصادي، وبحثاً مهماً حول النقود والأسعار، وكذلك رواية أسميتها (درّ وحماد) أهديتها إلى طفليّ حراء وذي الفقار.

(1) كان جلال (العنقرجي)، أي الخادم بمفردات السجن الذي اعتمدناه من بين السجناء طباخاً لنا يهيىء لنا الطعام ويساعدنا في غسل الصحون والملابس وتنظيف الغرف.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل السابع
الخروج من السجن

وفي يوم من أيام الصيف الحار وبينما كنت مستلقياً على سريري وأنا أرتدي الشورت فقط وأرفع ساقي اليمنى على الحائط وأقرأ بصوت عال بعضاً من شعر المتنبي من ديوانه شرح اليازجي، فوجئت بضجةً خارج الغرفة ثم دخول مدير السجون العام السيد أحمد أمين وبصحبته مدير سجون بغداد ومدير سجن «أبو غريب» ومديرو السجون ومدير المخابرات المسؤول عن سجننا الصغير، ويصرخ المدير العام: «دكتور طالب ارتد بسرعة ملابس السجن. . . السيد النائب يطلبك على الفور». كان الجميع مرتبكاً وكأن طامة كبرى وقعت عليهم إذ إنهم اعتقدوا أن إعادة محاكمة ستجري لي خصوصاً بعد الضجة التي أحدثها الحكم عليّ، وأن هذه الإعادة ليست في مصلحتي لأن النائب صدام حسين قد استفز وأنه لا يسكت عن مثل هذا الاستفزاز، وأن هؤلاء المسؤولين في السجون يبدون احتراماً كبيراً لي بعد احتكاكهم بي طول هذه المدة ولهم موقف غير معلن يشجب ما تعرضت له، ثم قادوني بعدها إلى خارج السجن الصغير وكانت سيارة (بيجو 404) بانتظاري مع أربعة من رجال

Twitter: @MahmoodTayeb

المخابرات، وعندما ركبت السيارة في المقعد الخلفي بين اثنين من هؤلاء الرجال ركض خلف السيارة الدكتور عبد الله سلوم السامرائي حافياً ويصرخ بأعلى صوته طالباً التوقف، توقفت السيارة وإذا بالدكتور عبد الله يعطيني خاتماً بحجر أسود كان أحد الكربلائيين الذين جاؤوا لزيارتي قد جلبه لي من شباك الإمام العباس بن علي بن أبي طالب وطلب مني أن أضعه في إصبعي إذ إنه حسب الاعتقاد السائد أنني حال وضعه سيتم الإفراج عني، وفي حينها لم أكترث لما قاله ووضعت الخاتم تحت الوسادة.

وضعته في إصبعي وسارت بنا السيارة باتجاه بغداد، وفي الطريق حدث عطب في أحد الإطارات، توقفنا ونزلنا من السيارة وأنا بملابس السجن البيضاء محاطاً برجال المخابرات، وصلنا كرادة مريم ودخلنا من بوابة القصر الجمهوري الكبيرة والقريبة من جهة جسر الباب الشرقي، ثم توقفت السيارة أمام مبنى من عدة طوابق أسموه عمارة (التأمين على الحياة) وهي مقر المخابرات. أدخلوني إلى إحدى الغرف الصغيرة في طابق علوي فيها مكتب من خشب الساج متوسط الحجم يجلس خلفه شاب يبدو متعجرفاً جداً ومتوتراً، وقد عرفته على الفور، إنه برزان التكريتي الأخ غير الشقيق للنائب صدام حسين، فقد كنت قد تعرفت على صورته في مناسبات سابقة، تركني الرجلان المرافقان لي في غرفته واستأذنا منه بالخروج، فنهرني على الفور طالباً مني الجلوس على أريكة أمامه، لم يكن يفصلني عنه سوى مسافة تقلّ عن المتر والنصف، حدّق إليّ بعينيه الصغيرتين المدورتين بحدّة وقساوة غليظتين ثم سألني: «أنت البغدادي؟!». قلت: «نعم». فشتمني فسكتّ، ثم أردف قائلاً: «أنتم الأساتذة

Twitter: @MahmoodTayeb

وحملة الدكتوراه تنظرون إلى خيالكم الذي هو أطول منكم وأكبر من واقعكم فتصدقونه وتعتقدون بأنفسكم عظماء». فسكتّ ولم أنبس ببنت شفة، ثم صرخ: «أجبني». فقلت له: «عفواً ليس عندي جواب، ما تقوله هو الصحيح». ثم أخرج من الدرج شيئاً فضياً يشبه العصا أو ربما الصاروخ الصغير. ارتبت من ذلك هلعاً وأصابني قلق سريع وشديد لكنني هدأت حينما عرفت أنه يخرج سيكاره الخاص الطويل جداً من العلبة الفضية الخاصة به، ثم حدجني شزراً وبيده آلة تشبه (الكلبجة) الحديثة، وإذا به يقطع بها رأس السيكار، لكنني ارتعبت فعلاً بعد أن أخرج مسدساً فضياً صغيراً وجهه نحوي، فأغمضت عيني، فإذا به ينفجر ضاحكاً بشكل هستيري ويضغط على الزناد ليولّع السيكار، إذ إن هذا المسدس هو في الحقيقة ولاعة (قداحة) على شكل مسدس.

بعدها أخذ التلفون وأدار القرص وبدأ يتكلم مع أخيه صدام حسين، وبعد أن حيّاه قال له بالحرف الواحد «أبا عدي... البغدادي عندي ماذا أفعل به؟»، وبدأ بينهما حديث لم أستطع فهمه. وبعد أن أغلق سماعة التلفون التفت نحوي حاملاً ظرفاً كبيراً. قال لي: «في هذا الظرف بحث يبعثه إليك السيد النائب تأخذه إلى البيت تدرسه وتقيّمه وتحلله وتكتب بحثاً بديلاً منه، ولديك عشرة أيام إذ ستأتي إليك بعد هذه المدة سيارة ستأتي بك إليّ ثانية وبشرط أن أحداً لا يعرف ذلك، تقفل عليك البيت وتسدّ النوافذ بالستائر وتبقي معك زوجتك وأطفالك فقط، حتى إخوتك الذين يسكنون بجوار بيتك لا يعرفون ذلك».

وبلهجة تهديد أردف قائلاً: «إذا سمعت أن أحداً يعلم ذلك

Twitter: @MahmoodTayeb

فستكون العاقبة وخيمة». وصلت البيت وتمّ ما أمرني به، وبدأت بقراءة البحث وكان مسحاً وتحليلاً اقتصادياً لواقع الاقتصاد العراقي، من 80 صفحة قامت به شركة أبحاث فرنسية، وقمت بدراسته ثم نقده وكتبت بعد ذلك بحثاً بديلاً وتوصيات ونتائج بديلة تختلف كلياً عما ورد فيه، ولكن ضمن الأهداف التي يبغي تحقيقها واضع السياسة الاقتصادية (صدام أو غيره)، وفي غضون ذلك أخبرتني زوجتي بأن الدكتور أحمد الكبيسي زميلنا في كلية القانون قد كتب لها رسالة قدمتها إلى رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر عن طريق مرافقه الأقدم طارق حمد العبد الله الذي تربطه علاقة قرابة مع زوجة أخيها السيدة إنعام الجميلي[1]، وقد استهل الرسالة ببعض أبيات لقصيدة قالها الشاعر الحطيئة مخاطباً فيها الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن يفرج عنه من السجن الذي أودع فيه، التي يقول فيها:

مـاذا أقـول لأطـفـالٍ بـذي مـرخ

زغـب الـحـواصـل لا مـاء ولا شـجـر

في اليوم العاشر جاءت السيارة ومعها رجل مخابرات واحد وهو سائقها في الوقت نفسه وكانت بيجو حمراء اللون، وقد طلب مني أن أرتدي بدلة عادية ورباطاً بقميص أبيض، أخذت البحث معي الذي اشتمل على 225 صفحة، وصلنا إلى نفس المبنى وكان برزان بانتظاري في مكتبه، وطلب مني الجلوس في المكان السابق نفسه، وأخذ من يدي

---

(1) بعد وفاة الرئيس البكر أصبح طارق حمد العبد الله وزيراً للصناعة، وأثناء ذلك أمر الرئيس صدام حسين باغتياله، وبعد الاغتيال أذاعت الحكومة بياناً في الإذاعة والتلفزيون قالت فيه بأنه انتحر لأسباب شخصية.

Twitter: @MahmoodTayeb

البحث وبدأ يتصفح فيه ثم وجه نظرة نحوي سائلاً: «هل أنت متأكد من أنك كتبت هذا البحث وحدك بهذه المدة؟ ألم يكن هناك من يساعدك في ذلك؟». أجبته بأنني نفذت كل ما طلب مني. اتصل بعد ذلك بنائب الرئيس صدام حسين وأخبره بصوت خافت بأنني أنجزت البحث وأنني الآن أمامه، أغلق سماعة التلفون وسألني: «هل تريد أن تذهب إلى البيت أم تعود إلى السجن؟»، أجبته بأن الأمر له وليس لي، ثم قال لي: «الآن تذهب إلى السجن وسنرى فيما بعد».

وفي اليوم الثاني جاءت زوجتي إلى السجن وبيدها مرسوم جمهوري يقضي بإعفائي مما تبقّى من محكوميتي وإطلاق سراحي على الفور، حزمت أغراضي وكتبي وودعت الدكتور عبد الله سلوم السامرائي بقبلات ودموع صادقة نابعة من القلب تجاه أخ حبيب أحببته من صميم القلب.

أهم ما أخذته معي من السجن كان الإنجاز الذي حققته في بعض الأعمال الثقافية خلال وجودي في هذا السجن الصغير، فقد ترجمت كما ذكرت سابقاً كتاب (الحساب الاقتصادي) للاقتصادي الفرنسي الكبير شارل بيتلهايم وهو كتاب تحليل اقتصادي نظري (رياضي) للاقتصاد السوفييتي يتنبأ فيه هذا المفكر الماركسي الصلب بانهيار الاتحاد السوفييتي بعدما تحول اقتصاده المبني على رأسمالية الدولة إلى اقتصاد طبقات مشابه للاقتصاد الرأسمالي البحت، ولكنه مبني سياسياً على النظام الديكتاتوري، وقد سبق أن نشرت مقابلة معه حول هذا الكتاب في مجلة (دراسات عربية) الصادرة في بيروت[1].

---

(1) سبق وأن ذكرت أنني كتبت ردّاً اقتصادياً فكرياً على مقالة الدكتور جلال أحمد أمين المنشورة في مجلة «العربي» الكويتية حول التخلف والتنمية.

Twitter: @MahmoodTayeb

وفي المساء وأنا جالس أمام التلفزيون محاطاً بالأهل والأصدقاء المقربين أذاع مذيع نشرة الأخبار التلفزيونية في الساعة الثامنة مساء المرسوم الجمهوري الذي يقضي بإعفائي مما تبقى من محكوميتي وإطلاق سراحي من السجن.

اتصلت بعد ذلك على الفور وكما طُلب مني بالنائب صدام حسين على رقمه الخاص بمكالمات المواطنين، شكرته على ذلك بكلمات قصيرة ورد عليّ بأقصر منها.

وفي اليوم التالي اتصلت بي تلفونياً سكرتيرة رئيس مجلس التخطيط بعيد المدى الدكتور عبد العزيز القطيفي وطلبت مني الحضور في اليوم التالي لمقابلته، وعند دخولي إليه في الموعد المحدد استقبلني ببيروقراطية شديدة وكأنه لم يعرفني على الإطلاق، وسلمني أوراقاً فيها خمسون سؤالاً اقتصادياً طلب مني الإجابة عنها في البيت وإرجاعها إليه في اليوم التالي، وعندما أرجعتها إليه مع أجوبتها بدأ يهزّ برأسه ويبدي انزعاجه، ثم رفع سماعة التلفون وأدار القرص ليخبر المخاطب بالكلمات التالية: «لا فائدة، إنه مصرّ على تطرفه وتشددّه». وودعته وانصرفت عائداً إلى البيت.

Twitter: @MahmoodTayeb

بين الاعتقالين
إجراءات قمعية أخرى

بُلِّغت بعد خروجي من السجن من قبل الجهات الأمنية بأنني ممنوع من السفر مدى الحياة، وأن السيد النائب صدام حسين هو الذي أمر بذلك، وكذلك منعت من العمل في أي وظيفة اقتصادية.

بقيت في البيت مسلماً أمري لما أمروني به، وبما أن لي من العلاقات الاجتماعية ما يجبرني على استقبال الأصدقاء من الأقارب أو من المثقفين والأدباء والأساتذة، فقد أصبحت داري ومكتبي ملتقى لهؤلاء الإخوة والأصدقاء وهو ما دفع بالجهات الأمنية المسؤولة أن تبعث أحد أولاد ابن خالي الكبير، وهو من المسؤولين الحزبيين المتقدمين ليخبرني بوجوب منع هؤلاء والتوقف عن استقبال الأصدقاء والخروج خارج البيت لقضاء الوقت. راجعت وزارة الخارجية عن كتاب جاءني من منظمة (الفاو الدولية) عن ترشيحي لوظيفة خبير في بعثة الأمم المتحدة في تونس، فأخبرني الموظف المسؤول بأن الكتاب أُرسل إلى مجلس قيادة الثورة الذي رفض بدوره هذا الترشيح.

Twitter: @MahmoodTayeb

اتصل بي موظف بسفارة الكونغو وأبلغني بأن السفير يرغب بزيارتي في البيت فرحبت به ولكنني بقيت حائراً حول هذه الزيارة ما هي أسبابها أو أهدافها. جاء السفير بصحبته أحد موظفيه ليبلغني رسالة شفوية وتحريرية من السيد (نيسا) نائب رئيس جمهورية الكونغو يطلب مني السفر إلى برازافيل والعمل معه مستشاراً، وقد أبلغني السفير بأن رسالة مماثلة حملها بنفسه إلى النائب صدام حسين. غمرني فرح شديد بذلك لأن واحداً من أصدقائي وطلابي في فرنسا يتخذ مثل هذا الموقف بعد أن رجع إلى بلاده وتبوأ مثل هذا المنصب (بالانتخاب الديمقراطي). كان (نيسا) رئيساً لاتحاد طلاب إفريقيا السوداء وتخرج في الكلية التي تخرجت فيها نفسها وهي كلية الاقتصاد بجامعة بواتييه، وحين سجل في الدراسات العليا اختار موضوع دراسته في فرعي نفسه ومع أستاذي (برنارشينو)، فرشحني الأستاذ لمتابعة دراسته والإشراف على رسالته في الماجستير. وبعد فترة زمنية وجيزة أخبرني السفير بأن نائب رئيس مجلس قيادة الثورة يرفض طلب الكونغو الرسمي بتعييني واستضافتي على الرغم من أن نائب رئيس جمهورية الكونغو قد كتب إلى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين يعلمه بذلك بأني كاقتصادي معروف ملك للعالم الثالث وليس للعراق وحده، وإذا كان العراق لا يستفيد من خبرتي فإن دولاً أخرى مثل الكونغو يمكنها الاستفادة مني[1].

---

(1) سبق أن استدعاني السيد علي حسين الحمداني رئيس منظمة الاستثمار العربي التابعة للجامعة العربية للعمل معه، وحين قابلني أبلغني صراحة بأن الجهات الأمنية تتهمني باليسارية وأنها منعته من تعييني.

Twitter: @MahmoodTayeb

لم أجد طريقاً أمامي بعد أن ضاقت بي جميع السبل سوى العمل الحر والابتعاد كلياً عن الأنظار، فعرض علي أخي مقداد أن ننشيء مصنعاً في كربلاء للبلاط الخزفي المزجج المستخدم في تغطية قباب المساجد ومنائرها وجدرانها لوجود الخبرة لديه سواء من الناحية الفنية أو التسويقية. كانت فرصة جيدة وقد رحبت بها بقوة، فأقمت المصنع بالاشتراك مع أخي ومع اثنين من أهالي كربلاء متخصصين بهذا النوع من العمل، وبدأنا العمل بجدية وبدأت في الوقت نفسه المضايقات والضغوط من قبل الأجهزة الأمنية والحزبية ولا سيما أن عملي في المصنع تزامن مع الهجمة الشرسة جداً ضد عناصر حزب الدعوة وكوادره من قبل السلطة، وكانت كربلاء وقتئذ مركزاً للحزب، فاضطررت أن أترك العمل والمعمل وأعود إلى بغداد. بدأت أتردد على أحد أصدقائي من تجار التحف (الأنتيكات) وهو مستأجر في سوق عميد أسرتنا العم عبد العزيز البغدادي منذ بنائه في عام 1952، وهو التاجر محمد علي طاهر الملقب (بعلي الألماني)، كانت بيني وبينه مودة فائقة وعلى الرغم من كبر سنه وتردي وضعه الصحي زارني عدة مرات في البيت بعد خروجي من السجن، وبدأ يشجعني على فتح معرض (كاليري) للأنتيكات والسجاد أمارس فيه الهواية والعمل نظراً إلى ما أتمتع به من خبرة وتمكن، فاتفقت مع أخي مقداد على أن نفتح مثل هذا المعرض واخترت داراً كبيرة في مكان منعزل من منطقة المنصور وباشرت العمل، وكان نجاحي فيه باهراً بحيث اكتسبت بفترة وجيزة عدداً كبيراً من الزبائن بين دبلوماسيين وخبراء أجانب وهواة عراقيين وأصبحت (الدار

Twitter: @MahmoodTayeb

البغدادية في المنصور) أكبر كاليري للأنتيكات والسجاد الشرقي في بغداد وأشهرها.

في 26/ 7/ 1980 زارني في الكاليري أحد أصدقائي وهو عبد الإله الفكيكي وكانت الزيارة طويلة استغرقت نحو 3 ساعات من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى نحو الثانية بعد الظهر. استذكرنا الكثير من الذكريات خصوصاً حول أصدقائي إياد سعيد ثابت وعادل عبد المهدي اللذين يعيشان في الخارج، ويمارس كل منهما نشاطاً معارضاً للنظام كل منهما باتجاه معين، الأول بتنسيق مع ليبيا وإيران (الثورة الإسلامية)، والثاني مع الشيوعيين اليساريين والجناح السوري لحزب البعث العربي الاشتراكي، وسألته عن أخبار رجاء الخليلي فذكر أن أحد أصدقائنا وهو سعد الخياط الذي بقي إلى حين تسفير رجاء الخليلي إلى خارج العراق قريباً جداً منه، قد توفي فجأة وقد قرأ ذلك في أخبار الوفيات في الصحف المحلية.

أبديت أسفي لذلك ولم أخبره بأنني أعلم بنبأ وفاته بسبب وجود بعض الإشاعات والشبهات حول وفاته مما سيأتي تفصيله فيما بعد. ودّعني وذهبت بدوري إلى بيتي في الأعظمية.

Twitter: @MahmoodTayeb

الباب الثاني

في سجون المخابرات

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الأول
بين سجن القصر الأبيض وسجن الحاكمية

وصلت إلى البيت ووجدت زوجتي وأطفالي في انتظاري وقد أعدت مائدة الغداء مثل كل يوم، ومعها كان ابن أخي محمد جعفر الذي سبقني إلى البيت بعد أن قضى صباح يومه في الكاليري، وعند جلوسي على المائدة بعد أن حييت زوجتي وأطفالي رن جرس الباب الخارجي، فنهض ابن أخي محمد وخرج باتجاه الباب الخارجي، ثم عاد ليقول لي بأن جماعة من القصر الجمهوري يطلبونك فوراً. نهضت وأعطيت المفاتيح لزوجتي وودعتها قائلاً: «أنا ذاهب دون رجعة».

قدم لي أحد الرجال الأربعة الواقفين في الباب الخارجي للبيت نفسه على أنه ضابط في جهاز المخابرات، وأن الرئيس يطلب استدعائي لمقابلته، ثم صحبني مع الآخرين بسيارتهم إلى مبنى داخل أحد الأحياء السكنية خلف القصر الأبيض أي في منطقة البتاويين، ضغط السائق على منبه السيارة أمام بوابة حديدية كبيرة ففتحت له ودخلت السيارة إلى داخل المبنى وصحبني الضابط إلى إحدى الغرف التي تبدو وكأنها مكتب مدير التحقيق أو مدير المركز المختص.

Twitter: @MahmoodTayeb

استقبلني أحد الضباط المعروفين لدينا في منطقة الأعظمية، وهو وضاح الشيخ مقدماً نفسه باسم (خالد)، ثم صاح على أحد الأفراد وقال: «خذه». أخذني هذا الشخص وهو طويل القامة وعريض المنكبين ويملك شارباً أسود كبيراً وعينين حاقدتين تتقدان شرراً وتتطايران شراً دفعني إلى غرفة صغيرة وقال لي: «سلم كل ما لديك واخلع جميع ملابسك». وعندما هممت بتنفيذ طلبه ضربني لكمة بكفه الغليظ في مؤخرة رأسي. وصرخ: «أنا أبو محمود الجلّاد».

ثم صحبني وهو يكيل اللكمات إليّ إلى الطابق العلوي، ثم وقفنا أمام باب حديدي صغير فتح هذا الباب ودفعني إلى داخل الغرفة.

كان المنظر مرعباً ومن الصعب تحمله على الرغم من أنني تعوّدت على السجون والمواقف، ولكن ما رأيته لأول وهلة قد أخافني وزرع الرعب في قلبي.

أكداس من الرجال عراة، عيونهم غائرة وشعورهم طويلة بلحى كثة وكلهم وقوف الواحد ملتصق بالآخر، عدد لم أستطع تخمينه أو إحصاءه في زنزانة مغلقة مئة بالمئة لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة. ليس هناك مكان للجلوس ولا للنوم، والحر شديد إلى درجة أن العرق يتصبب من الأجسام برائحة تزكم الأنوف. دفعني (أبو محمود الجلّاد) بين هذه الأجساد لآخذ حيزاً بين جسدين يكادان يلتصقان أحدهما بالآخر. قال لي أحدهم: «في الزاوية يوجد مكان واحد للجلوس بطريقة القرفصاء وقد أعطينا وقتاً معيناً لكل شخص موقوف ليجلس في هذه الزاوية أو ينام وهو جالس». بقيت في هذا

Twitter: @MahmoodTayeb

المكان نحو الساعة والنصف وأنا عارٍ إلا من لباسي الداخلي (شورت أبيض). جاء أبو محمود الجلّاد ثانية وأخذني باللكمات والرفسات إلى الطابق الأرضي حيث مكتب وضاح الشيخ.

جلس على أريكة وسألني أن أجلس على الأرض، وبعد أن فعلت ذلك قال لي: «هل أنت نفسك طالب البغدادي صاحب قضية من لا ينتج لا يأكل»؟ قلت له: «نعم». ثم سألني: «هل تعرفني؟». قلت له: «نعم، وضّاح الشيخ». ضحك وقال: «كلا أنا خالد»، ثم بادر وقال:

ـ ندخل في الموضوع مباشرة... هل تعرف شخصاً باسم سعد الخياط؟

ـ نعم، صديق قديم.

ـ متى رأيته آخر مرة؟

ـ عام 1974 في مجلس الفاتحة المقام على روح صديقنا المرحوم هاشم عبد المهدي شقيق عادل عبد المهدي في حسينية عبد الرسول علي، كنت واقفاً عند الباب لاستقبال المعزّين فنزل سعد من سيارة مرسيدس سوداء وحين هممت باستقباله لمصافحته ومعانقته أو تقبيله كان استعداده تجاهي رسمياً جداً فتجاهلته وقررت أن لا ألتقيه بعد ذلك. فهمت من رجاء الخليلي حينها أنه يعمل مديراً للمكتب الخاص لوزير الخارجية الدكتور سعدون حمادي.

ـ أين هو الآن؟ هل تعرف شيئاً عنه؟

ـ قرأت في الصحف المحلية نبأ وفاته فصعقت وحزنت لذلك.

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ ألم تذهب إلى مجلس عزائه؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

ـ قلت لك بأنني قررت أن أنساه حتى من ذاكرتي بعد أن قابلني بذلك الجفاء غير المبرر وهو صديق حميم وعزيز، طالما قضينا أياماً طويلة في حياتنا سواء في العراق أو في أنقره أو إنكلترا.

ـ هل صحيح أنك قلت أمام آخرين بأن برزان التكريتي رئيس جهاز المخابرات قد قتله؟

(فهمت حينئذ سبب اعتقالي وأدركت بأن تسجيلاً قد وضع لي في مكتبي في الكاليري وأن هذا التسجيل قد سلّم إلى المخابرات العراقية فأجبته على الفور).

ـ نعم، أنا قلت ذلك.

ـ شكراً لصراحتك وصدقك. ولكن لماذا قلت ذلك وكيف ومن سوّغ لك أن تقول هذا؟ ومن هو شهاب الطابوقي؟

ـ هل تسمح لي أن أشرح لك ذلك بالتفصيل؟

ـ خذ راحتك كاملة ووضح الأمور بشكل دقيق.

ـ جاءني أحد الأصدقاء لزيارتي في محل عملي ودخلنا إلى المكتب معاً، وسألني هل علمت بوفاة سعد الخياط فأجبته نعم قرأت ذلك في الصحف، ولكن كيف مات إذ إنه لم يشكُ من أي مرض. فقال لي: «ألم تأت إلى الفاتحة وتعرف سبب الوفاة؟». فأخبرته

Twitter: @MahmoodTayeb

بالنفي فقال لي: «إنه وجد مقتولاً في سيارته وهو خلف مقود السيارة في حي الجامعة وإنه مصاب بطلق ناري في جبهته». فعجبت من ذلك وسألته: «ولكن لماذا يقتل ومن قتله. إنه موظف في وزارة الخارجية وعلى حدّ علمي فإنه يدير مكتب الوزير».

قال لي: كان ذلك سابقاً ولكنه انتقل إلى جهاز المخابرات ويعمل مستشاراً سياسياً لرئيس المخابرات برزان التكريتي، وإن جثته جاء بها إلى أهله مجموعة من رجال المخابرات ملفوفة بجنفاص، ورموها على الأرض في الحديقة فعلقت حينئذٍ على ذلك وقلت له: حتماً إن المخابرات قامت بقتله.

هنا قاطعني المحقق.

ـ ولكن لماذا تقتله المخابرات؟

ـ لأن مركزاً مثل هذا يجب أن يشغله إنسان يتمتع بثقة كاملة من جهاز المخابرات ومن النظام السياسي كذلك، ولكن حينما يكتشف أنه يعمل لحساب جهاز مخابرات آخر فحتماً إن الجهاز الذي يرتبط به يصفيه جسدياً بشكل فوري. وفي حالة مثل هذه فإن سعد الخياط إما أن يكون قد صُفِّي من قبل المخابرات الأمريكية التي من المحتمل أن يكون قد ارتبط بها وأنه لم يخدمها بل على العكس خدم المخابرات العراقية، أو العكس فإن المخابرات العراقية قامت بتصفيته بعد أن اكتشفت أنه مرتبط بالمخابرات الأمريكية.

ـ ولماذا المخابرات الأمريكية وليس غيرها... هل تعرف شيئاً عنه؟

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ أنا أجيبك بكل وضوح وصراحة وصدق وموضوعية. كانت لسعد الخياط حينما زرته في أنقره، وكان يعمل دبلوماسياً في السفارة العراقية هناك، علاقات حميمة مع اثنين من الموظفين الدبلوماسيين في سفارة الولايات المتحدة، وبما أنني سياسي قديم وأنتمي إلى الجيل الوطني المتطرف والمعادي للغرب وبالذات للولايات المتحدة، فقد حذّرت سعداً من ذلك وقلت له بصريح العبارة: إن كل دبلوماسي أمريكي هو مرتبط بالمخابرات الأمريكية ولهم وسائلهم وسبلهم في كسب أو توريط الآخرين أمثالك، بحيث لا تستطيع مقاومتهم.

ـ لنفرض أن ذلك صحيح. هل تعتقد بأننا قتلة وبأن برزان التكريتي قاتل؟

ـ يفترض بأجهزة المخابرات أنها تحمي نفسها وأن كل من ينتمي إليها يعرف هذه الحقيقة. يجب أن يكون مخلصاً كل حياته للجهاز الذي ينتمي إليه حتى بعد تقاعده.

ـ كيف عرفت ذلك؟ ولماذا تخوض في مثل هذه النقاشات؟

ـ هذه مسألة بديهية. إن عملنا في التنظيم السري أيام العمل السياسي دفعنا إلى أن نقرأ ونتعلم. وأعتقد أنني في مستوى يؤهلني أن أحلّل بعض الحوادث وخصوصاً إذا كانت قريبة مني.

ـ ألم تقل إن برزان قتله بيده؟

ـ كلا... لم يرد على لساني اسم برزان أو أي اسم لمسؤول أثناء نقاشي هذا.

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ ما هي علاقة سعد الخياط برجاء الخليلي، وأين هو رجاء الآن؟

ـ سعد ورجاء بعثيان سابقان وكانا ينتميان إلى المنظمة الحزبية نفسها وتربطهما صداقة قوية. أنا أجتمع مع رجاء ومجموعة من الأصدقاء المهتمين بالتاريخ والأدب أسبوعياً في بيت رجاء. وحين يسمع سعد الخياط بأنني حاضر في هذه اللقاءات كان يرفض الدخول ويعود بسيارته من حيث جاء... وحين أصابَ رجاء الخليلي مرضه الخطير (انزلاق الفقرات) اقترحت عليه أن يطلب من سعد وهو مقرب إلى القيادة أن ترسله الحكومة إلى ألمانيا أو سويسرا للعلاج على نفقة الدولة باعتباره حزبياً قديماً ومهندساً خدم لسنين طويلة في مؤسسات الدولة، وعلمت بعد ذلك أن سعداً تكفل بالموضوع وحقق اقتراحي، وبعد عودة رجاء إلى العراق فوجئ عند وصوله بأن عائلة الخليلي قد سُفِّرت بمجموعها إلى إيران باعتبارهم من التبعية الإيرانية فطلب بدوره تسفيره، فسمح له أن يغادر العراق مع زوجته وأطفاله بجوازات سفرهم، فلم يتسنَّ لي حينها أن أراه أو أن ألتقيه.

ـ ما هو رأيك في رجاء الخليلي؟

ـ من أية ناحية؟

ـ ألم يكن مرتبطاً بجهة أجنبية؟

ـ إنه من أنظف العناصر الوطنية. بل إن كل عائلة الخليلي هم من العناصر الوطنية التي خدمت وتخدم العراق عبر كل مراحل التاريخ العراقي المعاصر.

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ هل تعني أن تسفير التبعية هو خطأ قامت به القيادة؟

ـ هذا يرجع إلى تقدير القيادة للأمور. ولكنني أعتقد شخصياً أن كل عراقي كان بعد 1921 مقيماً في العراق وطلب الجنسية العراقية باختياره هو عراقي لا يجوز نزع جنسيته. هذه وجهة نظري.

ـ لنغلق الموضوع عند هذا الحد. إنك رجل موضوعي وصادق كما عرفناك سابقاً جريئاً في طرح مواقفك، ولكنني آسف أن أخبرك بأنك موقوف لدينا في موقف حاكمية المخابرات على ذمة التحقيق وبتهمة نشر إشاعات كاذبة ومغرضة ضد جهاز المخابرات وضد شخص رئيسه الرفيق برزان التكريتي.

ثم نادى على (أبو محمود الجلّاد) وقال له: «افتح لي باب الزنزانة التي فيها مهدي الجبوري، وحضر ملابس التوقيف». أخذني المحقق بيده إلى الطابق العلوي وأدخلني في زنزانة مظلمة جداً ولكنها أكبر من السابقة بضعف وفيها شخص موقوف واحد فقط اسمه مهدي الجبوري يعمل في الشركة العامة للسيارات، وهو متهم بأخذ عمولة قدرها خمسة ملايين دولار، وأنه احتفظ بالعمولة لنفسه وحجب شريكه في العمولة (برزان التكريتي) من الحصة المتفق عليها.

جاء أبو محمود الجلّاد بالملابس التي هي بيجاما رصاصية اللون من قطعتين ومن نوعية رديئة جداً. بقيت على هذا الحال اثنا عشر يوماً لم أخرج من الزنزانة إلا مرة واحدة يومياً في الصباح للمغاسل ولفترة محدودة جداً. كان طعامنا يسلم لنا من فتحة صغيرة في الباب الحديدية مرتين في اليوم، وهو طعام رديء جداً وقليل جداً

Twitter: @MahmoodTayeb

يقدم في صحن واحد من البلاستيك نحتفظ به مع كأس من البلاستيك للشاي الذي يقدم مع الطعام مضافاً إليه مادة معينة يقال إنها الكافور.

حين سلمني أبو محمود البيجاما أبلغني بأنني يجب أن أنسى اسمي كلياً وأنهم سينادونني برقمي الذي منحني إياه وهو (213) مسبوقاً بكلمة جاسوس، إذ إن الموقوف في هذا المكان يطلق عليه كلمة جاسوس والموقوفين جميعاً يدعون بالجواسيس. أصبحت هويتي إذن الجاسوس (213)، وأبلغني كذلك بأنني سأتعرض للضرب والتعذيب إذا لم أنسَ الاسم. وتعرضت بعد ذلك لمحاولات جرّب فيها أبو محمود فيما إذا كنت ناسياً الاسم أو لا، وقد نجحت في التجربة والحمد لله. أصبحت أخيراً أنا ـ طالب البغدادي ذا التاريخ الوطني الطويل وذا الماضي النقي النظيف ـ جاسوساً. هكذا أراد برزان التكريتي وعليّ أن أقبل بهذا وأصيح بكلمة «نعم» حين ينادونني (بالجاسوس رقم 213). دخل أبو محمود الجلاد فجأة إلى الزنزانة وصاحب بنا: «جواسيس اخلعوا ملابسكم وانتظروا عراة كما خلقكم الله»[1]. بقي الباب مفتوحاً إلى أن نودي علينا بأن نخرج من الزنزانة نركض، فخرجنا مهرولين بين طابورين من الحرس كل منهم يحمل سوطاً من الجلد يجلد به ظهورنا ونحن نهرول عراة، إلى أن نزلنا السلم إلى الطابق الأسفل وفي رأس السلم وقف أحد الحراس وبيده ألبسة داخلية من القطن لستر العورة، أعطاني واحداً وأنا أهرول

---

(1) كان مهدي الجبوري يبكي ويولول ويقول بأنهم سيذيبوننا بأحواض مليئة بحامض النتريك... فصرخت به «اسكت أيها الجبان... يا سارق قوت الشعب... فليذيبوك إلى جهنم وبئس المصير»... فسكت وهو في حالة يائسة من الخوف والرعب.

Twitter: @MahmoodTayeb

وصاح بي: «البس... البس». توقفت لثوان لألبس السروال القطني القصير وأهرول ثانية بعد أن عصب عيني حارس آخر لأجد نفسي في سيارة (فان) ملأها الجواسيس (الموقوفون) الذين هرولوا قبلي. تكدست الأجسام في هذه السيارة المغلقة من جميع الجوانب وتحركت بنا نحو جهة مجهولة ومصير مجهول... كدت أختنق من قلة الهواء وتكدس الأجسام الملتصقة ببعضها والروائح النتنة التي تخرج من أجسامنا التي لم يمسها الماء لمدة طويلة ومتفاوتة بحسب مدة الموقوفية، لذا لم أفكر بمصيري أو بسبب نقلي أو الجهة التي نؤخذ إليها، أهي إلى الموت، أهي إلى القتل الجماعي، لماذا نحن عراة... كنت على العكس أتمنى كما يتمنى الآخرون الموت على أن نعيش هذا الوضع اللاإنساني والرعب المستمر.

توقفت السيارة وفتحت الأبواب الخلفية، وصاح بنا أحد الحراس: «جواسيس، اركضوا» فهرولت وأنا معصوب العينين وأمسك حسب أوامرهم بكلتا يدي بأكتاف الجاسوس الذي قبلي، وصعدنا سلماً ونحن نهرول. ثم صاح أحدهم. «جواسيس... قف». توقفنا ثم طلب منا الجلوس على الأرض، وأن نضع رؤوسنا بين أرجلنا. فعلنا ذلك لمدة ساعات، وبعدها بدأ أحدهم بإلقاء خطبة مقدماً نفسه في البداية على أنه العقيد داود مبيناً أن الثورة وقادتها قد رأفوا بنا وقرروا نقلنا إلى بناية جديدة تستوفي كل العناصر والأسس الإنسانية للسجون، وأن شركة أجنبية هي التي نفذت هذا المشروع، وبعد أن أنهى الخطبة طلب منا أن نرفع العصبة عن أعيننا دون أن نرفع رؤوسنا. ولكنني اختلست النظر لأرى أين نحن وكم هو عددنا. كانت قاعة كبيرة مبلطة بالسيراميك الأحمر، وكان عددنا كبيراً يتراوح

Twitter: @MahmoodTayeb

بين 300 إلى 400 موقوفٍ. ثم نودي علينا: «جواسيس... قف». ثم أخذنا ونحن معصوبو العيون ثانية ليوزعونا على الزنزانات، وبعد هنيهة صاح أحدهم: «قف... وافتح العصبة». وحين فتحتها وجدت نفسي في زنزانة حمراء اللون، الجدران سيراميك أحمر، السقف مطلي باللون الأحمر، الأرض مبلطة بالسيراميك الأحمر. كنا ستة موقوفين... صاح بنا أحد الجلادين: «اجلسوا... واسندوا ظهوركم إلى الجدران». ثم أغلق الباب الحديدي المحكم وابتعد عن الزنزانة. كل شيء في الزنزانة وربما في المبنى ككل جديد، وفي نهاية الزنزانة مرافق ومغاسل وحمام بماء حار وبارد وفي أعلى الحمام شباك صغير مدوّر يقترب من السقف ويأتي ببعض النور للزنزانة. فتح الباب الحديدي مرة أخرى وجاء أبو محمود الجلاد وبيده ملابس وزعها علينا. وهي بيجاما من قطعتين بنية اللون... ثم جاءنا ببطانيات سوداء جديدة أعطى لكل منا بطانيتين واحدة نفرشها على الأرض والأخرى نتغطى بها، وحين فتحنا البطانيات وجدنا أسراباً من قمل أسود غامق وكبير الحجم لم نستطع التخلص منه طيلة مدة مكوثنا فيْ هذا المكان، ويبدو أنه قمل مستورد خصيصاً.

بعد يومين وفي الساعة التاسعة مساءً فُتح الباب ونودي عليّ: «الجاسوس رقم 213». أخذني أبو محمود الجلاد باللكمات والرفس وهو يصيح بي «اركض جاسوس... اركض جاسوس». نزلت السلّم على هذه الطريقة، ثم أوقفني عند باب إحدى الغرف عصب عيني ووضع يدي خلفي وربطهما ثم جاء جلاد آخر ليرشّ عليَّ نوعاً من العطور لكي لا تزكم رائحتي النتنة أنوف من هم في داخل الغرفة. أدخلني الغرفة وصاح أحدهم الذي لا أراه: «اجلس على الأرض». ثم سأل شخصاً آخر:

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ . . . (أتعرفه؟).

أجاب: (كلا).

ثم سأله ثانية: إنه طالب البغدادي، الدكتور طالب البغدادي.

ـ لم أستطع تمييزه وهو بهذه الحالة.

ـ أتعرفه من قبل؟

ـ كلا . . . مجرد معرفة منطقة، ولكن ليست لي به علاقة، لأنه سياسي خطير وسجين سابق، معرفته تجلب لنا المشكلات، إنه متآمر، ومعروف عنه بأنه حاقد على الثورة والحزب.

(في حينها ميّزت الصوت بوضوح . . . إنه أخي وصديقي الحميم شهاب الطابوقي الذي أكنّ له كل الحب والوفاء. لقد قال تلك الكلمات عني معذوراً كل العذر لأنه في موقع رهيب ومرعب ومخيف . . . لا بد له من أن يقول ذلك لينقذ نفسه من التعذيب والإرهاب والنتائج غير المعروفة التي لا تؤدي بالتأكيد إلا إلى الهلاك والدمار . . . إنه إنسان هادىء وعطوف ومؤدب ويمتاز بتربية عالية . . . كريم النفس ومعطاء إلى أبعد الحدود . . . لم يخض سابقاً أية تجربة من هذا النوع).

أمر المحقق (وضاح الشيخ) بفتح عيني . . . وسألني على الفور:

ـ أسمعت ما قال؟

ـ أتعرف هذا الشخص.

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ نعم.. إنه شهاب أحمد الطابوقي... جاري وصديقي.

ـ ما هو رأيك بما قال؟

ـ له الحق فيما يقول وله رأيه الخاص.

وجهت نظري إلى شهاب ورأيته جالساً على أريكة وبيده فنجان قهوة إلى جانب المحقق وضاح الشيخ الذي كان يكلمه بكل أدب واحترام، كان شهاب يرتدي سروالاً وقميصاً أنيقين ومحافظاً على توازنه في جلسته وعند كلامه، ثم سأله المحقق:

ـ لقد قلت قبل قليل بأنك لم تلتق الدكتور طالب على الإطلاق، وأنت تكذب في ذلك، وحين سألنا الدكتور طالب عن ذلك نفى كذلك أنه التقاك، وقد فسرنا ذلك بأنه يريد أن يحميك وهو شرف كبير له وموقف نبيل منه على عكس موقفك. اتهمته بالتآمر والحقد، وتحاول تحريضنا عليه في الوقت الذي يضحي هو فيه بنفسه من أجل أن يبعدك عن الموضوع أستاذ شهاب. للمرة الأخيرة أقول لك: وضِّح لنا ما جرى وما دار بينك وبين طالب البغدادي حول موضوع وفاة سعد الخياط.

ـ لا أعرف شيئاً عن الموضوع وليس لي علاقة به لا من قريب ولا من بعيد.

وفجأة ضربه المحقق بلطمة على وجهه أذهلته وأذهلتني وطار من يده فنجان القهوة وانسكب ما فيه على ملابسه، واتجه نحوي قائلاً:

ـ اذهب مع صديقك إلى الغرفة المجاورة وحاول أن تفهمه بأنه

Twitter: @MahmoodTayeb

في دائرة المخابرات وأن الكذب لن ينطلي على رجالها وأنكما في موضع اتهام خطير قد يؤدي إلى ضياع حياتك.

ثم قادونا نحن الاثنين إلى غرفة مجاورة بينهما باب، وطلبت من شهاب أن يتكلم بصراحة ووضوح ولا فائدة من الإنكار لأن شريطاً مسجلاً لديهم بكل محاورتنا التي جرت في الكاليري وقلت له: «عليك أن تبوح بالحقيقة لكي تخلص نفسك، فمن يكذب في هذا المكان يلاق الويلات. إنني ألح على ذلك من أجلك وليس من أجلي... أنت تعرف بأنني قد تعوّدت منذ صغري على هذه المواقف، وأنني أقول دائماً إنني أعيش في الوقت الضائع من العمر». نودي علينا ودخلت الغرفة ثانية، ويبدو أنهم تنصتوا على كل ما قلته، فتوجه وضاح الشيخ بالسؤال إلى شهاب:

ـ ماذا تقول الآن؟

ـ الحقيقة... أعترف أن طالب البغدادي صديق عمري وأنني زرته كالمعتاد في الكاليري، لكنه هو الذي أخبرني بموضوع وفاة سعد، وهو الذي علق وقال بأن برزان التكريتي قام بقتل سعد شخصياً.

فما كان من المحقق إلا أن انهال عليه ضرباً ولكماً وبشدة، وكان شهاب يصرخ مستغيثاً ويصيح:

ـ سأعترف... سأعترف.

ولكن المحقق لم يتوقف، ثم صاح بأبي محمود الجلاد الذي كان واقفاً يتفرج على المشهد في الوقت الذي كان قلبي يتقطع ألماً على ما يعانيه واحد من أحب الناس إليَّ: «أبو محمود عرِّه وأعطه

Twitter: @MahmoodTayeb

درساً». ثم قام الجلاد بتعريته وبدأ بتعذيبه بواسطة (العصا المطاطية) بشكل يقشعر له الرأس والبدن والقلب، ويهتز له الضمير والوجدان... وكنت أصرخ: «توقفوا أنا المسؤول اضربوني أنا، إنه بريء بريء بريء» ولكن لم يتوقف أبو محمود الجلاد حتى أغمي على شهاب، فأمر المحقق بإرجاعي إلى الزنزانة، فقام أبو محمود بإرجاعي بالضرب المبرح (بالعصا المطاطية) على رأسي وظهري وساقي. حافظت على نفسي من السقوط لأنني أعرف أنه في حالة سقوطي فسيشدد الضرب والتعذيب، ولكنني وقعت حين دخولي إلى الزنزانة مغمياً عليّ، ولم أفق إلا بعد أن عالجني بقية الإخوة السجناء.

بقيت في هذه الزنزانة مدة طويلة لا أستطيع احتسابها، ولكن الموقوفين يتبدلون يومياً يخرج بعض منهم ويأتي آخرون، وأعرف منهم بأي يوم نحن أو بأي شهر. وبعد انقضاء مدة معينة وطويلة وفي الليل نودي علي من الفتحة الصغيرة للباب، ثم فتح الباب لأرى أبا محمود الجلاد مرة جديدة أمامي، أخذني ولكن من دون ضرب نزلت السلم. وعند باب إحدى الغرف أوقفني... عصب عيني ويدي كالمرة السابقة، وسمعت صوت وضاح الشيخ الذي اعتدت عليه تقريباً ليقول لي وبلهجة مؤدبة: «تفضل دكتور، اجلس». أجلسوني على الأرض وأحسست من الهمهمات أن أكثر من شخص موجود في الغرفة، فسألني أحدهم الذي يشبه صوته صوت الرئيس صدام حسين[1].

---

(1) عرفت بعد خروجي من السجن من زوجتي أن صاحب هذا الصوت هو سبعاوي إبراهيم الأخ غير الشقيق لبرزان التكريتي، ويُعدّ وفق هذه الصلة أخاً لصدام حسين كذلك.

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ كيف حالك يا دكتور طالب؟

ـ الحمد لله. . . بخير.

ـ وكيف تقضي أيامك؟

ـ بالمطالعة ومشاهدة التلفزيون.

فصرخ أحدهم وقد ميّزت صوته. . إنه صوت برزان التكريتي رئيس المخابرات:

ـ هل تستهزىء يا جاسوس. . . لك سبعة أرواح كالقطط.

لزمت الصمت ولم أنبس ببنت شفة حتى تكلم الشخص الذي سألني عن حالي قائلاً:

ـ دكتور طالب، إنك شخص معروف بعلمك ونزاهتك وماضيك النظيف، وقد أنقذتك شجاعتك وموضوعيتك عام 1976 مما لا يحمد عقباه، والآن أنت في ورطة كبيرة وقد اعترف صاحبك شهاب الطابوقي بحقيقة ما جرى، وقد قدرنا موقفك النبيل تجاهه ونحن نفهمه الآن. جئت لأسمع منك مباشرة وتجيبني عن سؤالي التالي:

ـ هل هناك أبعاد خلف ما تعرفه عن قضية سعد الخياط وارتباطاته، وهل لك أنت شخصياً ارتباط بأية جهة كانت أجنبية أو عراقية أو عربية؟

ـ كلا على الإطلاق. . . أنا مشغول برزقي وبتربية أطفالي ورعاية عائلتي الصغيرة والكبيرة كذلك (وأعني إخوتي وأولادهم).

ـ وكيف أصدق ذلك؟

Twitter: @MahmoodTayeb

ـ ليس لدي من أقسم به حتى تصدقني إلا صدام حسين، قسماً بصدام حسين إنني صادق فيما أقول.

ـ سادت برهة صمت. ثم أردف قائلاً:

ـ بارك الله فيك، تفضل وارجع من حيث أتيت.

أرجعني أبو محمود إلى الزنزانة دون أن يمسني ثم فتح عيني ويدي وأدخلني إلى الزنزانة.

في الزنزانة استذكرت حالة حدثني عنها عام 1976 في الزنزانة الانفرادية الموقوف الكردي رفيق البشدري، وهذه الحالة هي التي استحضرتها حواسي اللاإرادية في دفاعها المطلق من أجل البقاء، وأوعزت إلي أن أبادر بموضوع القسم بصدام حسين الذي أنقذني فعلاً من موت محقق، حدثني البشدري أنه حينما أخذوه إلى التحقيق معصوب العينين، وعند أول سؤال ميّز صوت صدام حسين بين الحاضرين في التحقيق، وحينما وجه إليه المحقق أول سؤال أجاب بأنه ليس على استعداد للإجابة عن أي شيء لأن السلطة في العراق ليس فيها سوى رجل واحد يحترمه ويحبه... إنه صدام حسين... وقال لهم بالحرف الواحد: «كلكم جبناء لكنكم تلتفون حول رجل واحد شجاع وفارس وقائد عظيم». وقال لي بعد ذلك، إن هذا الموقف هو الذي أنقذه من النتائج الوخيمة التي قد تواجهه.

نودي عليّ من جديد بعد أيام في الليل، وفي هذه المرة دخلت إلى غرفة المدير مفتوح العينين واليدين، كان معه بعض المسؤولين كما يبدو، فسألني عن صحتي ثم طلب مني أن أخابر الأهل تلفونياً فيما إذا رغبت في ذلك، وقد أبديت بالتأكيد رغبتي في ذلك فكلمت

Twitter: @MahmoodTayeb

زوجتي التي فوجئت بمكالمتي إذ إنها وجميع أفراد العائلة لا يعرفون شيئاً عني طوال شهور عديدة، وإن الإذاعات أعلنت إعدامي سراً، لكنها قالت لي إنها متفائلة وإن اليأس لم يصل إليها على الإطلاق. ثم أخبرتني بأنها ولدت بنتاً فقد تركتها حاملاً في شهرها السابع. وحينما سألتها عن اسم المولودة قالت بأنها لم تسمها لحد الآن وأنها تنتظر خروجي فطلبت منها أن تسميها (بالكميت)... فسألني المدير (وضاح الشيخ) عن معنى الكميت أخبرته بأنها فرس المتنبي، فضحك وقال للآخرين: «يبقى أصيلاً». ودعني وطلب من الجلاد أن يصحبني إلى الزنزانة.

وفي نحو منتصف شهر كانون الأول فتح الباب وطلبوا منا جميعاً الخروج خارج الزنزانة وقادونا إلى سطح المعتقل لنأخذ شيئاً من أشعة الشمس والهواء الطلق، ثم أخذوني مع بعض الموقوفين إلى الطابق الأرضي وعصبوا عيني ويدي وقادوني إلى خارج المبنى ليضعوني مع آخرين في سيارة (فان) سارت بنا سيراً سريعاً وجنونياً... كنا مكدسين الواحد فوق الآخر وكأننا جثث الخراف المذبوحة، وكان معنا حارسان في داخل السيارة. كدنا مرات عديدة أن نختنق، وقد سارت بنا السيارة. مسافة طويلة قدرتها في حينها بـ50 إلى 60 كيلومتراً خارج بغداد على الأقل.

توقفت السيارة، فأُنزلنا من السيارة وبدأ أبو محمود الجلاد ينزع عن عيوننا العصبة، ويفك أسر أيدينا، ثم يلطمنا بلكمة على خلفية الرأس.

سقطت شبه مغمى عليَّ ولكنني نهضت ودخلت إلى المبنى الذي توقفت عنده السيارة التي أقلتنا.

Twitter: @MahmoodTayeb

الفصل الثاني
في سجن المخابرات الرهيب «أبو غريب»
معسكر غسل الدماغ

كان المبنى بطول 30 متراً ـ حسب تقديري ـ يتكون من ساحة مكشوفة مستطيلة بعرض حوالي 12 متراً وبطابقين، وتقع على جانبيه زنزانات ذات أبواب مكشوفة ومحكمة بقضبان حديدية. أخذوني إلى الطابق العلوي من سلم يقع على يسار المبنى، وأدخلوني إلى إحدى الزنزانات المشغولة من 5 موقوفين آخرين يبدو أنهم جاؤوا قبلي بدقائق أو أكثر، أربعة شباب ورجل في الخمسين أو في الخامسة والأربعين من العمر جلس القرفصاء في الزاوية اليمنى الأمامية؛ لقد عرفته جيداً ولكنه أشار إليَّ بحاجبيه بأن لا أتحدث معه؛ إنه العقيد الركن المتقاعد عزيز قادر صمانجي، أستاذ سابق في كلية الأركان، وهو من القومية التركمانية في كركوك أحيل إلى التقاعد وتعرفت عليه في محل الزهور الذي افتتحه قرب بيتي في الأعظمية[1].

---

(1) كانت تهمته أنه شكل حزباً طورانياً في كركوك، وأن هذا الحزب السري قام بعمليات تفجير في عدد من دور السينما في كركوك وأن هذا الحزب يرتبط وفق الاتهام بالحكومة التركية.

Twitter: @MahmoodTayeb

جاء السجانون بوجبة طعام كبيرة وشهية لجميع النزلاء مع ألبان وفواكه، وقد استلمناها بشغف بعد جوع وحرمان داما لمدة أشهر، فأشار علي (أبو تيمور) أو (أبو أحمد) كما يسمي نفسه أن لا آكل. امتنعت عن الطعام لأنني أدركت أن (أبا تيمور) عقيد ركن وموجود في الزنزانة قبلي ربما يعرف أكثر مني سبب هذا الكرم والسخاء اللذين نزلا فجأة على رجال المخابرات. وفعلاً بعد وقت قصير من تناول الشباب الموقوفين لذلك الطعام بدؤوا يصيحون ويصرخون ويطلبون من السجانين اصطحابهم إلى المرافق.

ولكن الجلادين امتنعوا عن فتح الأبواب ووقفوا أمامنا خلف الأبواب الحديدية مكتوفي الأيدي وهم يطلقون ضحكاتهم الهستيرية التي تعكس شماتتهم بما آل إليه الوضع في الزنزانات.

في صباح اليوم الثاني وبعد أن رجعنا من المغاسل التي بقينا فيها نحو ثلاث دقائق صاح أحد السجانين من خارج الزنزانات: «جواسيس، قيام». وبعد أن قمنا جميعاً صاح الصوت: «أديروا بوجوهكم نحو الحائط وارفعوا أياديكم إلى أعلى وقدمكم اليسرى على الأرض». ثم صاح صيحة أخرى: «جواسيس... أنتم كلاب... قولوا: نعم سيدي». وبدأ يرددها مرات ومرات ونحن نهتف «نعم سيدي» ثم صاح مرة أخرى قائلاً: «جواسيس أنزلوا أيديكم وأقدامكم». فعلنا ذلك... فصاح ثانية: «ارفعوا الآن أياديكم وقدمكم اليمنى عن الأرض». عاد وصرخ مرة أخرى: «جواسيس ماذا أنتم؟ قولوا: كلاب سيدي». وردد هذا السؤال عشرات المرات ونحن نصرخ مجيبين: «كلاب سيدي».

Twitter: @MahmoodTayeb

صاح ثانية: «جواسيس... أنزلوا أيديكم وأقدامكم». ثم هتف بعصبية حادة قائلاً: «كلاب... انبحوا». فبدأنا ننبح كالكلاب لمدة زمنية معينة وكانت أصواتنا ونباحنا تختلط بضحكات وقهقهات الجلادين. أمضينا ساعة كاملة على هذا المنوال... وتكرر الدرس في الساعة الرابعة عصراً من اليوم نفسه... وبدأ يتكرر كل يوم مرتين: درس صباحي ودرس مسائي ولمدة شهر كامل.

كان أحد الموقوفين من الشيوخ رجال الدين قد امتنع عن النباح في أول يوم، فقاموا بسحبه وضربه أمام جميع الزنزانات إلى أن توفي نتيجة ذلك، فكان ذلك درساً لنا نحن الموقوفين، وبقينا نؤدي الدرس بكل طاعة وانضباط خوفاً من أن يكون مصيرنا مصير ذلك الشيخ الجليل المتهم بانتمائه إلى إحدى الحركات السياسية الدينية. وكان أداؤنا يختلف من درس إلى آخر إذ إن الجلادين يطلبون مرة منا أن نكون كلاباً تنبح ومرة حميراً تنهق ومرة ثالثة ديكة تصيح.

بقينا على هذه الحال أكثر من شهر... نقلت بعدها إلى بغداد حيث مبنى الحاكمية من جديد، وفي هذه المرة نقلت بسيارة إسعاف (بيجو). مددوني على نقالة المرضى داخل السيارة وطلبوا مني أن أبقى من دون حراك لكي لا أتمكن من رؤية أي شيء أو أي إنسان.

دخلت السيارة إلى داخل المبنى واصطحبني أحد الجلادين وأنا مفتوح العينين واليدين هذه المرة، وأدخلت إلى إحدى الزنزانات وكان بعض الموقوفين من القدماء الذين أصبحت لي معرفة بهم بل صداقة وعلاقة قوية، فاستقبلوني بكل ترحاب وكرم.

Twitter: @MahmoodTayeb

كان أحد الموقوفين من شيوخ الدين الكهلين يردد دائماً وهو يحرك برأسه مغمض العينين: «الداخل مفقود والخارج مولود». فقلت له يوماً: إنني وضعت نذراً في رقبتي بأنني مستعد أن أركض عارياً في الشوارع إذا ما أطلقوا سراحي والناس تتجمع حولي وتناديني بالمجنون»، لأن اليأس بلغ الدرجة القصوى في أن أحدنا يمكن أن يعيش أو أن يطلق سراحه حياً.

وفي نهاية شهر كانون الثاني نودي عليَّ باسمي الصريح، وأخذني الجلاد إلى غرفة المدير لألتقي شاباً يجلس خلف المكتب حسن المنظر وهادىء الأخلاق ويرتدي بزة عسكرية مرقطة. استقبلني بكل أدب وصافحني وطلب مني الجلوس قدم نفسه على أنه (رافع التكريتي) مدير المكتب الخاص. سألني عن حالتي وعن وضعي وقال لي: «ماذا كنت قد نذرت في الزنزانة في حال إطلاق سراحك؟». وضحك بعد ذلك وقال: «البس ملابسك واذهب إلى بيتك، فقد أمر السيد رئيس المخابرات برزان التكريتي بإطلاق سراحك. لا تنبس بأي كلمة عن كل ما لاقيت ورأيت ولا تعط أي معلومات عن سبب سجنك ومكانك. إنني اهنئك على سلامتك ونجاتك من زنزانات الموت البطيء»، وردد المثل الشعبي العراقي المعروف «إنك قطة ذات سبع أرواح».

أخذني أحد السجانين إلى مدخل المبنى، وجلب لي ملابسي الصيفية وأعطاني ساعتي وخاتم زواجي وحزامي، ثم أخذني إلى خارج المبنى ليصحبني بسيارة مدنية إلى ساحة الأندلس ويرميني في وسطها ويغادر.

Twitter: @MahmoodTayeb

كان ذلك نحو الساعة الخامسة عصراً، وكانت الشوارع خالية تماماً من السيارات ومن المارة، وإذا ما مرت بعض السيارات فإنها ملطخة بالطين وخصوصاً أضواؤها وأجهزة الإنارة... ثم رأيت بعض الشباب يسيرون بملابسهم المدنية ولكنهم يحملون أسلحة. ارتبت في الأمر واعتقدت في نفسي بأن انقلاباً ربما قد حدث من داخل النظام، وأن برزان أطلق سراحي وربما سراح بقية السجناء كجزء من مقررات الانقلاب. مرت سيارة حاولت إيقافها ولكنها لم تتوقف، ثم مرت سيارة أخرى ولم تقف لإشارتي إليها بالوقوف معتقدين بأنني مجنون لأنني كنت هزيلاً جداً وأرتدي ملابس صيفية (سروال وفانيلة) في عز البرد والشتاء ولي لحية طويلة تغطي كل صدري بل تصل إلى قرب الحزام وشعر كث يغطي رقبتي وجزءاً من ظهري. فقررت أن أقف في وسط الشارع لأمنع السيارة القادمة من المرور فعلت ذلك ونجحت في إيقافها، وبسرعة فائقة أمسكت بباب السائق وهتفت به صائحاً: «ثق أني لست مجنوناً». فضحك وقال لي «أعرف ذلك... إنك خارج من سجن المخابرات. لقد تعودت على هذا المنظر»، ثم سألني:

ـ أين بيتكم؟

ـ في الأعظمية.

ـ إنك محظوظ فأنا بيتي أيضاً في الأعظمية. اصعد سريعاً فأنا ذاهب إلى البيت.

وبعد أن صعدت إلى جانبه سألته:

ـ ماذا يجري؟ أخبرني رجاء، فالوضع غريب.

Twitter: @MahmoodTayeb

فضحك وهز برأسه قائلاً:

ـ صحيح. إنك لا تعرف ماذا يجري... إنها الحرب بيننا وبين إيران ونحن في نظام منع التجول الذي سيسري مفعوله بعد أقل من ساعة، وبعد قليل ستبدأ الطائرات الإيرانية بمهاجمة بغداد مثل كل يوم.

ـ ومتى بدأت الحرب؟

ـ قبل أكثر من ثلاثة شهور.

والتفت إلي فجأة وسألني:

ـ أين بيتكم بالضبط؟

ـ في حي المغرب على الشارع العام (شارع الإمام الأعظم) إلى جانب السفارة الهندية.

ـ هل أنت الدكتور طالب البغدادي.

ـ نعم، وكيف عرفت ذلك؟

ـ أولاً الحمد لله على سلامتك، وثانياً نحمد الله على أنك حي لأن الإشاعات حولك في الأعظمية تقول بأنك قد أُعدمت قبل نحو أربعة شهور... وأن بعض الإذاعات أذاعت ذلك أيضاً. وقف أمام البيت وصافحني بحرارة، فطلبت منه أن ينتظرني لأجلب له الأجرة من داخل البيت، لكنه أدار المحرك وغادرني.

كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة إلى العائلة حيث دخلت إلى بيت أخي مقداد الذي يقع بابه على الشارع العام. وكانت العائلة متجمعة

Twitter: @MahmoodTayeb

هناك إذ إنهم يجتمعون في هذا الوقت كل يوم بسبب الغارات الجوية. بعد العناق والبكاء والزغاريد بدؤوا يخبرون بقية أفراد العائلة والأصدقاء المقربين تلفونياً... وعاد أخي مقداد إلى البيت ليعود بعد نحو عشر دقائق وبصحبته هادي العبيدي حلاق المحلة. فرشت الأرض بالجرائد لكي لا يسري القمل إلى السجاد المفروش، وكانت الأسراب من القمل تحاول أن تأخذ طريقها خارج الجرائد، ولكن شقيقتي بدأت بسكب البترول عليه لقتله وإبادته.

بدؤوا بطرح الأسئلة، ولكن أخي مقداد طلب منهم جميعاً أن لا يوجهوا أي سؤال، ولكن أخي الأكبر جعفر طلب منه السماح بأن يسألني سؤالاً واحداً فقط، فتوجه لي بالسؤال التالي:

ـ ما هو أغرب شيء رأيته منذ دخولك وحتى خروجك؟

ـ رأيت أناساً موقوفين وقد نمت الطحالب فوق أجسادهم.

سكت، وسكت الجميع، وسكت بدوري لأسدل الستار على هذا الفصل الرهيب في حياتي الذي لا يمكن أن ينسى على الرغم من أن الله عزَّ وجلَّ قد منحنا نعمة النسيان... ولكنني كلما حاولت أن أنساه تتراءى أمامي ثلاث صور بقيت وتبقى ماثلة أمامي، صورة أبي محمود الجلاد بعينيه الشيطانيتين المتقدتين وتكشيرته المرعبة، وصورة الأستاذ المصري الذي لفظ أنفاسه وهو يبكي ابنتيه وزوجته اللواتي تركهن في مصر، وصورة الشيخ الكهل رجل الدين الذي فارق الحياة وهو يسحل من لحيته أمام زنزانات السجناء.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

الدكتور طالب البغدادي

ـ دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية

جامعة بواتييه ـ فرنسا ، 1973.

ـ دبلوم عال في الصيرفة والمالية في النظام الاشتراكي ـ ستاتني بانكا ـ براغ، 1965.

ـ أستاذ في جامعة بغداد ـ قسم الاقتصاد، 1974.

ـ أستاذ في جامعة الزيتونة ـ قسم الاقتصاد ـ الأردن، 1995.

ـ أمين عام حلقة دراسات التخلف الاقتصادي ـ جامعة بواتييه، 1970.

ـ رئيس جمعية الطلبة العراقيين في فرنسا، 1970 ـ 1973.

ـ أمين عام لجان مناهضة الإمبريالية والعنصرية لغرب فرنسا، 1969.

ـ أحد مؤسسي مؤتمر القوميين الاشتراكيين ـ بغداد، 1965.

ـ أحد مؤسسي التجميع العراقي الثوري في أوروبا، 1969.

ـ مستشار في دولة قطر 1999 ـ 2004.

ـ رئيس ديوان رئاسة الجمهورية، العراق، 2004 ـ 2005.

ـ رئيس منتدى 30 حزيران الثقافي.

Twitter: @MahmoodTayeb

أبحاث ومقالات منشورة:

1 ـ أبحاث اقتصادية:

ـ مجلة النفط والتنمية ـ بغداد.

ـ مجلة دراسات عربية ـ بيروت.

ـ جريدة راية العرب ـ بغداد.

2 ـ مقالات سياسية:

مجلة «وجهة نظر» القاهرة.

ـ جريدة «الوسط» البحرين».

ـ جريدة «الشرق» الدوحة.

ـ جريدة «الوطن» الدوحة.

ـ جريدة «راية العرب» بغداد.

3 ـ مقالات في الأدب والفن والتاريخ:

ـ مجلة «العمارة» بغداد.

ـ مجلة «هو وهي» الدوحة.

ـ جريدة «الراية» الدوحة.

ـ جريدة «الشرق» الدوحة.

ـ جريدة «الوطن» الدوحة.

ـ كتاب مصور عن الفنون الإسلامية.

مؤلفات وترجمات لم ترَ النور:

1 ـ مقامات البغدادي.

2 ـ شارع طه في الذاكرة.

3 ـ الحساب الاقتصادي لشارل بتلهايم.

4 ـ كتاب النقود لدى ماركس ـ سوزان دي برنهوف.

Twitter: @MahmoodTayeb

Twitter: @MahmoodTayeb

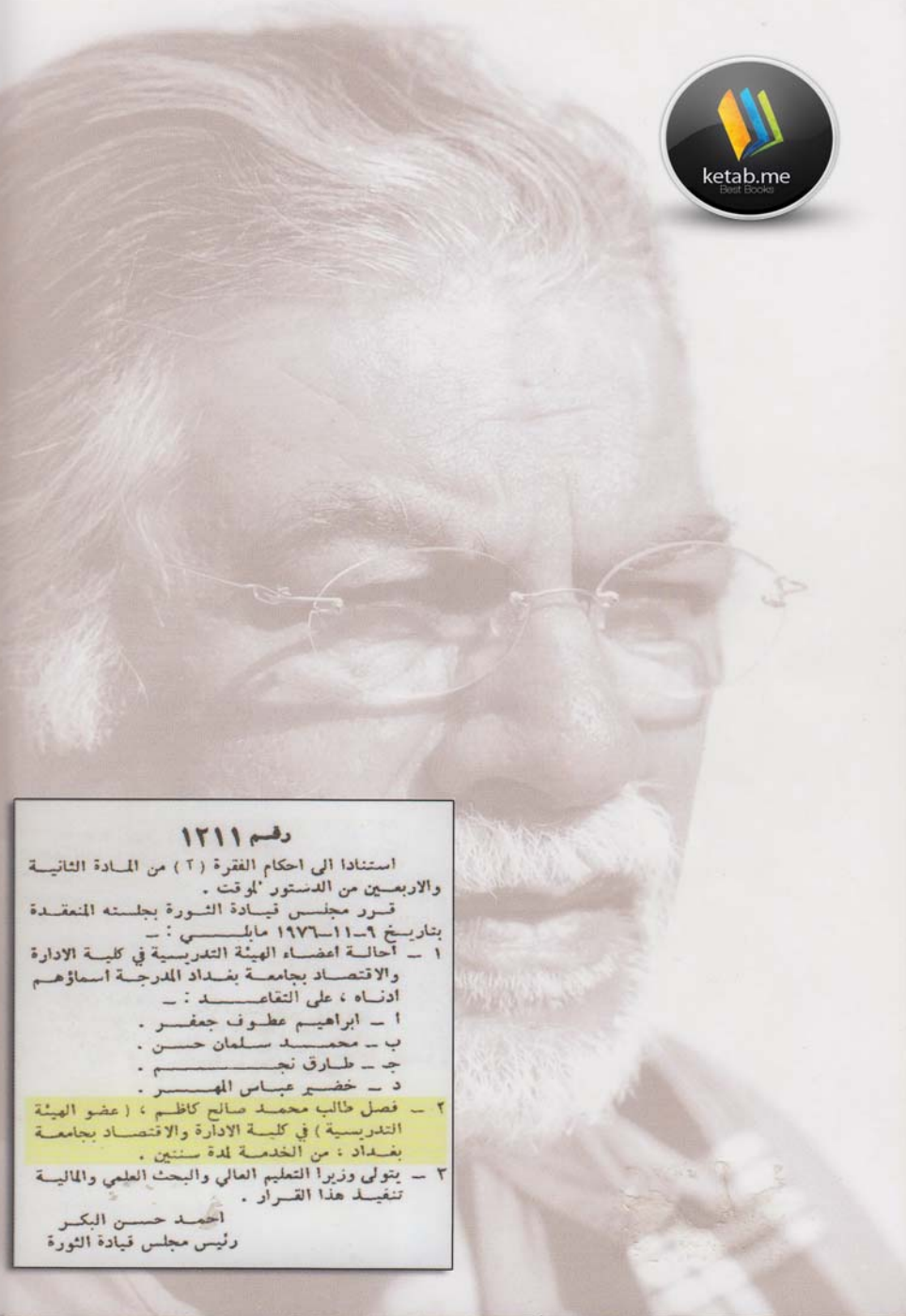

رقم ١٢١١

استنادا الى احكام الفقرة (٢) من المادة الثانية والاربعين من الدستور المؤقت .

قرر مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ٩-١١-١٩٧٦ مايلي : -

١ - أحالة اعضاء الهيئة التدريسية في كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد المدرجة اسماؤهم ادناه ، على التقاعد : -

أ - ابراهيم عطوف جعفر .

ب - محمد سلمان حسن .

جـ - طارق نجم .

د - خضير عباس المهر .

٢ - فصل طالب محمد صالح كاظم ، (عضو الهيئة التدريسية) في كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد ؛ من الخدمة لمدة سنتين .

٣ - يتولى وزيرا التعليم العالي والبحث العلمي والمالية تنفيذ هذا القرار .

احمد حسن البكر

رئيس مجلس قيادة الثورة